جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

التراث الإسلامى بين التقدير والتقديس

أ . د . بكر زكى عوض

العدد (١٢٥)

القاهرة

رجب ١٤٢٦هـ - أغسطس ٢٠٠٥م

يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبد الصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

مقدمة

كان للأمر الإلهى بالنظر فى الكتاب المسطور والكتاب المنظور كبير الأثر فى نماء العلوم والمعارف عند المسلمين .

كما كان للأمر بطلب العلم من ناحية ، والثناء عليه وعلى أهله من ناحية ثانية ، والنهى عن الجهل وقدحه مثل ذلك .

ولهذا صارت الأمة الإسلامية أغنى الأمم بتراثها المعرفى ، إبداعاً وجمعا ونقلا .

إلا أن هذا التراث – على كثرته – فى السنوات الأخيرة ، قد اتجهت إليه العقل مرة ثانية بنظرات مختلفة ، فمن الناظرين إليه من هو مقدّس له ، ومنهم المقتّر ، ومنهم الحاقد الحاسد على التراث وأهله .

وفى هذا البحث بيان لجانبى التقدير والتقديس ، مع بيـــان ما يجب فعله فى عصرنا الحاضر ، بشأن تراثنا الإســـــلامى ، والله من وراء القصد وهو حسبى ونعم الوكيل .

أ . د / بكر زكى عوض

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

تمــهيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوتـــه إلى يوم الدين .. وبعد ... ،

فقد حبا الله مصر بتوأمين من المؤسسات الدينية لا نظـــير لهما على وجه الأرض وهمـــا : الأزهـــر الشـــريف ، ووزارة الأوقاف .

ولكل منهما نشاطه فى ميدان خدمة الإسلام تعريفاً وبلاغـــاً ونشراً ودفاعاً عن طريق الكلمة المتلوّة والكلمة المكتوبة ، وهذا كتابى أتمنى أن يفى بالغرض المرجو منه فأقول :

كثر الحديث فى السنوات الأخيرة عن التراث الإســـلامى ، والفكر الإسلامى والخطاب الدينى والتفكير الدينى ، وخاض فـــى هذا الأمر من هو أهل له ومن ليس له بـــأهل . إن الحديـــث فـــى الأمور الدينية وملحقاتها صار كلأً مباحا فى السنوات الأخـــيرة لكل من هبَّ ودبَّ .

وقد رأيت لزاماً عليّ أن أدلي بدلوي في لجة هذا الأمـــر ، سائلاً الله أن يوفقني إلى حسن عرض الموضـــوع وأن يوفــق القارئين إلى فهمه الفهم الحسن ، لأنني ما كتبت مادحاً الـــتراث بالكلية ولا قادحاً إياه بالجملة ، بل محسّنا حَسَنه مقبّحاً ما علــق به ، جاعلاً نصب عينيّ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّـــهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِـكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [1] .

في الآية دعوة إلى الموضوعية في الحكم والتجـــرد مــن المؤثرات الخارجية ، وإن صادم الحكم هوى النفـــس أو تعلــق بأقرب الناس إلى الإنسان (الوالدين والأقربين) ونحن أمام فكر نحكم له أو عليه فيجري عليه من الآداب والأحكام ما ورد فـــي النص .

لقد حرصت كل الحرص على أن أجعل عنـــوان الكتـــاب مُستقيا من القرآن الكريم لأن أي انطلاق في ميدان الفكر الديني الإسلامي بعيداً عن القرآن الكريم يصيب صاحبه بالذلل والخلـل

---

(١) النساء : ١٣٥ .

لا محالة ، ولهذا كان اختيار العنوان على أساس من الكتاب والسنة ، وفى إطار بيان المفردات أقول :

وردت كلمة التراث مرة واحدة فى القرآن الكريم فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾ (١) فإذا رجعنا إلى آراء المفسرين وجدناهم يقولون : إن التراث هو : ما خلفه الآباء للأبناء ماديا كان أو غير مادى . أو ما تركه السابقون للاحقين فى مجال المحسوسات والمعقولات . " إن التراث – بوجه عام – هو ما يخلفه السابق للاحق فى الدين ، وفى الفكر ، وفى الأخلاق وفى الشرائع وفى الآداب وفى الفن وغير ذلك .

إنه النتاج الإنسانى والفكرى والوجدانى ، الذى خلفته لنا أجيال الأمة الإسلامية السابقة ، ويمكن بلورته وتحديده فى أقسام ثلاثة ضرورية للتمييز والفصل وهى (التراث الدينى) ، (التراث الفكرى العام) ، (التراث الوجدانى) (٢).

هذا فيما يتعلق بكلمة التراث فى ضوء آراء المفسرين للقرآن الكريم ، وأما كلمة الإسلامى ، فيراد بها ما نسب إلى

---

(١) الفجر : ١٩ ، ٢٠ .

(٢)الغارة على التراث الإسلامى صـ٢٠ .

الإسلام لأن الياء هنا للنسبة ، ويتحقق الانتساب الكامل للإسلام بالتزام تعاليمه كليًا وجزئيًا ، يستوى فى ذلك أن يكون المنتسب إنساناً أو المنسوب عملا ، وحيث إن الإنسان لا يعد من التراث فأصبح المقصود الأفكار باعتبارها آثار الأشخاص دون الأشخاص لأنها لا تندرج فى الآثار ، وللعلماء فى بيان المراد بالتراث الإسلامى مركبا ، أو الفكر الإسلامى وهو أخص من التراث باعتباره مقصوراً على المعقولات دون المحسوسات رأيان :-

الرأى الأول : التراث الإسلامى هو ما أنتجه العقل المسلم لشرح الإسلام والدفاع عنه فى عصوره الأولى ، وقد مال إلى هذا الرأى المرحوم الدكتور/ محمد البهى فى كتابه الفكر الإسلامى فى تطوره [1] .

الرأى الثانى : يرى أن التراث الإسلامى أو الفكر الإسلامى، هو ما نتج عن العقل الإنسانى متفقا مع القرآن الكريم

(١) حين قال " الفكر الذى يحافظ على قيمة الإيمان بالإسلام ، وقيمة المبادئ التى جاءت بها رسالة الإسلام للإنسان فى حياته الفردية أو فى مجتمعه مع غيره " الفكر الإسلامى فى تطوره صـ٣ .

والسنة المطهرة ، وعلى هذا الرأى يكون كتاب " محمد الرسول والرسالة " ، " محمد رسول الحرية " وغيرهما من الكتب المحسوبة على التراث الإسلامى ، والحقيقة أن هذه الدلالة فيها توسع . لأنها تجعلنا لا نقف عند حد للتراث الإسلامى ، إذا قلنا أن كل مكتوب حق هو من التراث الإسلامى أو الفكر الإسلامى وهو ما وقع فيه أبو الحسن الأشعرى فى كتابه " **مقالات الإسلاميين** " ولست بآخذ بأحد الرأيين : لأن الرأى الأول قصر الأمر على الكتابة التى تهدف إلى الدفاع عن الإسلام أو التعريف به فى العصور الأولى ؛ فإن أخذنا بظاهره فما حكم كتب التاريخ والقصص والعلوم التجريبية فى ميدان الطب والهندسة والصيدلة والكيمياء والفلك إلخ ، ولعلماء الإسلام الأول دور كبير فى كتابة الكثير فى هذه الميادين ، ولم يكن الهدف الدفاع أو التعريف بل ، تدوين العلم الذى انتهوا إليه فى زمنهم .

كما أن الرأى الثانى يفتح الباب على مصراعيه ويُحَمِّل التراث الإسلامى ما لا يحتمل ، إضافة إلى كون صاحبه لم

يعتمد القرآن والسنة سبيلا لفكره ، إضافة إلى كونه منكرا لـــهما (أى قائل كلمة الحق من غير المسلمين) .

إننى أرى أن التراث الإسلامى هو : ما سطّره العقل المسلم عبر تاريخ الدعوة الإسلامية ، سواء أكان المسطّر مـــن علـــوم الدين أم من علوم الدنيا ، حقا كان المسطّر أم بـــاطلا . وبـــهذا يخرج القرآن الكريم عن الوصف بالتراث لأنه وحى الله إلــــى خلقه وصلة البشرية به قاصرة علـــى التلقـــى والانتفـــاع دون الإضافة فيه أو الإبداع ، كذلك تخرج الســـنة المطـــهرة لقـــول الرسولﷺ :**"ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجـــل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع الحديث"**[1].

وأما ما نقله المسلمون عن غيرهم ، مما ورد فى تراثنـــا ، فإن إسقاطه من تراثنا غير مستطاع ، وهو يختلف بحســـب حالـــه

---

(١) مسند الشاميين ، ج٢ ، ص١٣٧، أبو داود حديث رقم "٤٦٠٤"، وسنن الترمذى حديـــث رقم " ٢٦٦٤ "ج٥،٣٨، ص٢٠٠، ابن ماجة ج١٢،ج١، ص٦، مســـند أحمـــد ، ح١٧٢١٣، ج٤ ص١٣٠.

من حيث الصحة والفساد ، والقوة والضعف وهو محسوب على التراث الإسلامى ، بعد أن ورد فى فكر وكتب المسلمين بالنسبة للماضى .

وبالنسبة للحاضر فإن الدراسات الحديثة بدأت فى التمييز بين الفكر الوارد فى ثنايا هذه الكتب ، وللمفسرين المحدثين فضل السبق فى هذا الميدان على وجه الخصوص ، وأخصهم بالذكر ، عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه " زاد المسير " وابن كثير فى كتابه " تفسير القرآن العظيم " والقرطبى فى كتابه " الجامع لأحكام القرآن " وأكثرهم تمييزا للروايات هو ابن كثير وإن بقى فى تفسيره الشئ الكثير الذى لم يتم تخريجه إلا فى التحقيقات الحديثة الآن .

وقد بدأ علماء التفسير بدراسة المرويات وإصدار رسائل تتعلق بهذا الأمر ، فقالوا " الإسرائيليات فى كتاب كذا ، كما قالوا " الدخيل" فى كتاب كذا ، وفرقوا بين الإسرائيليات " والدخيل بأن الأول ما كان منسوبا إلى مسلمى أهل الكتاب ، أو ما كان له أصل فى كتب أهل الكتاب ، وأما الدخيل فهو

ما ورد فى كتب التفسير مما لا أصل لـــه عند أهل الكتاب ، بل أخذ عن الفكر اليونانى أو الهندى أو الفارسى – ويلاحظ أن هــذا الأمر قاصر على كتب التفسير بخاصة ، وتبقى كتب التاريخ والسير والمغازى والكرامات والمواعظ والرقاق تعج بهذا اللـــون مــن التراث المفتقر إلى تدقيق وتحقيق دون أن يجد له ســـبيلاً حتــى الآن .

وأما كلمة " تقدير " فقد وردت فى القرآن الكريم فى أكثر مــن موضع ، قال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيــرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [(١)]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [(٢)] إلى غير ذلك من الآيات التى وردت فيها مادة " قدّر " ويراد بها فى جملـــة ما ورد فى القرآن الكريم معان كثيرة منها : وضع الشـــىء فــى موضعه ، الإحكام وانتفاء الخلل ، المقدار الذى لا يقبـــل الزيـــادة ولا النقصان ، ومن معانيها المنزلة والمكانة والشـــرف والضيــق والسعة كما ورد فى معجم ألفاظ القرآن الكريم .

---

(١) يس : ٣٨ .

(٢) الفرقان : ٢ .

والمراد بالتقدير فى هذا البحث وهذا العنوان (إنزال التراث منزلته وإحقاق حقه وإبطال باطله فى غير تعصب إلا للحق وغير تكلف إلا تغليب العقل على العاطفة حتى يكون الحكم موضوعيا).

وأما كلمة " **تقديس** " فإن فعلها " قدّس " ولم ترد الكلمة بهذه الصورة فى القرآن الكريم ، وإن وردت مادة " القدس " وهى تعنى الطهر ، والقدوس وهو من أسماء الله الحسنى ، وقد عرفت فى الفكر الإسلامى بأنها " التعظيم والطهر والعصمة والرفعة وغاية الكمال الذى لا يتأتى معه النقد أو الطعن ..إلخ .

من خلال تحليلى لعنوان الكتاب أقول : إن أئمتنا وعلماءنا قد تركوا لنا موروثات تنقسم بحسب الواقع إلى قسمين :

١ــ موروثات حسية (الأبنية – الطرق – الأنهار – كل مظاهر العمران) .

٢ــ موروثات فكرية ولها مظاهر شتى من حيث التدوين .

ولست بصدد الحديث عن الموروثات الحسية لأن مجالها خارج عن دائرة البحث ، وبخاصة لأنه لم يشتهر على ألسنة الناس أو فى أفكارهم أن التراث الحسى تطلق عليه كلمة تراث

إلا عند الصفوة من المفكرين ، لأن المحسوسات قد اشـــــتهرت بأنها آثار ولم تشتهر بأنها تراث .

الناظرون إلى التراث الإسلامى فى العصر الحاضر :-

تتفاوت أحوال الناظرين إلى التراث فى العصر الحاضر فى الداخل والخارج من المسلمين ومن غير المســـلمين ، ويمكــن حصر ما قالوه فى ثلاثة آراء :

الرأى الأول : وعليه جمهور المسلمين من العامـــة وغـــير المتخصصين يرون التراث شيئا مقدساً لا يتأتى المساس بـــه ، شأنه شأن الأضرحة والمزارات لأنه يشكل الإسلام من وجهـــة نظرهم ، وكل نقد له هو نقد للإسلام (هكذا يظنون أو يعتقدون) . فلابد من بقاء التراث على حاله ، بل إن الخرافـــات والأســـاطير هى أخص ما يستهويهم من التراث لأنه يتناسب مـــع مســـتواهم الثقافى ويشبع عواطفهم ولا يكلفهم كثيرا من المشقة مـــن حيـــث الفهم وهم يبذلون كل جهد ممكن للدفاع عنه .

ويلحق بهؤلاء كثير من تجار الكتب وأرباب المطابع الذيـــن يقيســـون الـــرأى العـــام ، ويبحثـــون عمـــا يرضـــى الأذواق لا ما يرضى الخَلاّق ، فالكتب التى حَرْقُها خير من نشرها لـــها

سوق رائجة لدى طباعة هؤلاء ؛ كمكاشفة القلوب المقرب من علام الغيوب المنسوب للإمام الغزالي ، وقصص الأنبياء المسمى بـ " عرائس المجالس للثعلبى" " قوت القلوب " لأبي طالب المكى ، " وروض الرياحين " ، وما نسب إلى ابن عربى والشعرانى وآخرين .

الرأى الثانى : وقادته فى الغرب وأعوانهم فى الشرق من العلمانيين والحداثيين والعصرانيين وما بعد الحداثة ويلحق بهم الشيوعيون وقلة من غير المسلمين ، هؤلاء جميعاً يطالبون بقطع الصلة بالتراث بالكلية والانطلاق من معايير جديدة تمكن من إثبات الوجود فى حيز الوجود ، ولهؤلاء الآن كلمة مسموعة فى أجهزة الإعلام ولدى ولاة الأمر فى بعض الدول الإسلامية ولهم مجلات وكتب ومنظمات ، وبينهم روابط قوية للغاية فى العالم الإسلامى ، وقد علا صوتهم فى الآونة الأخيرة ، إلا أن هذا الرأى لم يلق ترحيبا أو تأييدا لدى الرأى العام ، لأن ربط التخلف بالدين لا يقبل من العاقل ، وعلماء الإسلام المستنيرون ، يقفون لهؤلاء بالمرصاد ، فالفكر الإسلامى غير ملزم للإسلام بل يقاس بالقرآن وصحيح السنة ، ولا يقاس القرآن وصحيح السنة بالفكر

الإنسانى ، وإن تم القياس في غير تعصب ولا تكلف أتت النتيجة لصالح القرآن والسنة ، كما أن فرقا كبيرا بين دين قد أبعد عن الحياة في أوروبا فكان في إبعاده الحياة لأهلها ، وبين الدين الذى لا تنعم الحياة إلا به فإن أبعد عن الحياة كان الشقاء : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١) .

وقد اعتدلت قلة من أصحاب هذا التيار فقالوا : نستبقى النصوص المقدسة (القرآن والسنة) ونعيد تفسيرها وفق متطلبات العصر ، فلا داعى لاعتبار التراث لأنه كان لزمنه وليكن لنا شأننا في فهم النص ، وهو أخص ما يكون فى فكر د / زكى نجيب محمود وآخرين ومن الأمثلة التى ضربها لذلك قوله " فمن أسس تراثنا : أن السعادة لا تنال إلا بالعلم والعمل" ، نأخذ هذه الجملة بألفاظها فنكون قد اعتمدنا التراث ، ولكننا نحوّرها لتجرى على سنن العصر الحاضر والحياة الواقعية التى نعيشها بمتغيراتها .

---

(١) طه : ١٢٣ ، ١٢٤ .

فالعلم المقصود في تراثنا هو – كما يقول الغزالى فى (ميزان العمل) : العلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وملكوت السماوات والأرض ، من حيث إنها مرتبة بقدرة الله ، لا من حيث ذواتها ، والعمل هو مجاهدة الهوى ، وهو السلوك تحليا بالفضائل ، وتخليا عن الرذائل ، والسعادة هى السعادة الأخروية .

أما حينما نوظف هذه الجملة في ظل عصرنا، ونكسبها المعنى بنقلها من المثالية إلي الواقعية ، فإن العلم هو العلوم الطبيعية من : فيزياء وكيمياء وما إليهما ، والعمل هو ما يجرى فى المعامل من تجارب من شأنها أن ترتقي بوسائل حياتنا مطعما ومشربا .. ،

وأما السعادة : فهي سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا وعلى هذه الأرض ، ويقول معترضا على الشاعر القائل :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ∴ فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يقول : لو شئت لقلت :

وإنما الأمم التقنيات ما اطردت ∴ فإن انعدمت علومهم تخلفوا [1]

---

(١) راجع : حقيقة الفكر الإسلامى ٢٣٢ .

الرأى الثالث : موقف الوسطيين الذين لا يقولون بـــالقبول المطلق ولا بالرفض المطلق ، بل يرون التراث رصيدا لا يجوز إضاعته وجذوراً لا يجوز اقتلاعها وثوبـــا لا يتـــأتى نزعـــه ، ويرون فى نفس الوقت مراجعته كرصيد وتنقيته مما علق به من الشوائب كثياب ، ولا يعتقدون بعصمة كاتبيه ولا قدسيتهم كمـــا لا يحكمون عليهم أجمع بالخطأ أو الخلل .

وأصحاب الريادة والقيادة فى هذا المجال هم علماء الحديـــث النبوى وبخاصة الإمام البخارى والإمام مسلم واللذين كانا لـــهما دور كبير فى نقد المرويات وتنقيتها وترتيبها فى درجات ، وقبول بعضها ورد البعض الآخر ، وقد خلفهم خلف سار على دربـــهم ولكنه تساهل فى شروطهم التى وضعوها لقبول المرويات كمـــا تساهلوا فى الحكم على الأحاديث وإن سقط بعض هذه الشـــروط عند الطبرانى فى المعجم الكبير والمعجم الصغير وفى الأوسط ، وعند السيوطى فى الجامع الكبير والجامع الصغير ، كما ألفـــت كتب فى نقد الرجال باعتبارهم حملة المتن ، وتم الحكـــم علـــى

الأحاديث من خلال السند كما تم الحكم من خلال المتن مع انتفاء التلازم بينهما كما يرى علماء الحديث .

وفى السنوات الأخيرة بدأت حركة التحقيق فى كثير من ميادين التراث الإسلامى وإن كانت فى ميدان التفسير والحديث والتاريخ الإسلامى ومقارنة الأديان والفقه أكثر منها فى غيرها من العلوم والمعارف الأخرى .

إن الموضوع الذى نحن بصدده واسع للغاية ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لعرضت علما واحداً وأظهرت جوانب التقدير فيه وجوانب التقديس ، ثم أبديت رأيى حول الرأيين ولكن عنوان البحث فرض نفسه فجاء الحديث عاما عن التراث بأسره بين التقدير والتقديس .

❁❁❁

بواعث التقدير للتراث الإسلامى

إن تراثنا الإسلامى بكل فخر وبدون تعصب محل تقدير لاعتبارات عدة منها :-

الباعث الأول : أن هذا التراث كان ولا يزال يُستقى من مصدر إلهى ومن معين لا ينضب وهو القرآن الكريم الذى لا تنقضى عجائبه ولا يَخْلَق (يبلى) على كثرة الرد .

وإذا كانت هذه الجملة معروفة للعام والخاص ، فإننى ألفت النظر إلى أمر أظنه قد غاب عن كثيرين ، وهو : أن الاحتكام فى الفكر الإسلامى فى كل عصر ومصر كما أن مصدره القرآن – فى البدء – ينبغى أن يكون الاحتكام إلى القرآن بعد كل ما صدر عن العقل أو رزق إياه من فهم ، أسوتنا فى ذلك وقدوتنا الصحابة فى حياة الرسول ﷺ والصحابة من بعده والعلماء الفقهاء عبر تاريخ الأمة الإسلامية .

ففى حياة الرسول ﷺ حين نزل قول الله تعالى:﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١] شق ذلك على أصحاب الرسول ﷺ وشكوا ذلك إليه قائلين : وأينا لا يظلم نفسه يا رسول الله ؛ فقال لهم الرسول ﷺ : أما قرأتم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٢] فسّر الظلم بالشرك [٣]، وبهذا نرى الاحتكام إلى القرآن قيد لابد منه فى كل فكر دينى له صلة بالحكم الشرعى ، عملا بقول الله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [٤] ولو لم يَرُدّ الرسول ﷺ هذا الفهم أو هذا الفكر إلى النص القرآنى لظل الحرج قائما .

وقد أنكر أحد الصحابة التنّمص على النساء فقالت له سيدة : وأين ذلك فى كتاب الله ؟ قال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه – أما قرأت قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

---

(١) الأنعام : ٨٢ .

(٢) لقمان : ١٣ .

(٣) البخارى جـ٣ صـ١٢٢٦ رقم ٣١٨١ .

(٤) النساء : ٥٩ .

فَانتَهُوا ﴾ [1] إن رسول الله ﷺ لعن النامصة والمتنمصة ... ، ولست بصدد الحديث عن منزلة هذا الحديث ودرجته الآن [2] بل بالحديث عن فقه الصحابة فى الاحتكام إلي النص القرآنى .

فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ ، جئ بامرأة قد ولدت لستة أشهر من الزواج ، واتهمت بالزنا وطلبوا إقامة الحد عليها ، فقال على بن أبى طالب : ليس عليها حد ، قيل له كيف ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [3] وقال فى آية أخرى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾[4] وفى آية ثالثة ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [5] فإذا فصلنا الحولين من ثلاثين شهرا بقى ستة أشهر ، وبها أسقط الحد والتعزير عن هذه المرأة .

(١) الحشر : ٧.

(٢) صحيح مسلم ٣ صـ١٦٧٦ ، والرواية فى ابـن حبان جـ١٢ صـ٣١٣ رقم " ٥٥٠٤ " .

(٣) الأحقاف : ١٥ .

(٤) البقرة :٢٣٣.

(٥) لقمان : ١٤ .

روى سفيان بن عيينة عن الحكم بن إبان أنه سأل عكرمة عن أمهات الأولاد فقال : هن حرائر . فقلت بأى شىء ؟ قال بالقرآن . قلت بأى شىء فى القرآن ؟ قال : قال الله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [1]وكان عمر من أولى الأمر ...

إنني لا أريد الاسترسال فى الماضى حول النص القرآنى كمصدر أول للفكر الإسلامى فى بعض جوانبه ، ولكنى أشير إلى أن ذلك لازم للعلماء فى كل عصر ومصر ، فى القرن الماضى ، كان أحد العلماء المصريين يلقى محاضرة فى إحدى الدول العربية عن الحقيقة والمجاز فى القرآن الكريم ، وقطع فى كلامه بأن فى القرآن مجازاً ، وكان من بين الجالسين من أهل تلك الديار شيخ ضرير ، فوقف مغضبا منكرا على العالم القول بالمجاز فى القرآن الكريم ، فرد عليه هذا العالم قائلا : إذا لم تسلم بالمجاز فى القرآن الكريم ذهبتَ فى داهية ، لأن الله يقول فى القرآن الكريم :﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي

(١) النساء : ٥٩.

الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[1] فكان جزاء العالم المصرى أن يسافر مطروداً فى نفس الليلة إلى مصر ، ومع هذا بقى رأيه حقا ودليله صدقا وقوله فصلا لأنه احتكم إلى كتاب ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[2].

إن فكرنا الإسلامى يمتاز عن غيره من سائر الأفكار الدينية – دون تعصب – بأن له ميزانا يوزن به ، عندما يتجلى الله على من شاء من خلقه بجمعه بين حفظ النص وفهم النص فضلا عن منّة زائدة وهى إدراك روح النص ، لأن الحفظ قاسم مشترك بين الصالحين والطالحين والبار والفاسق ، والفهم يفتقر إلى التقى ، وأما إدراك روح النص فهو الحكمة التى قال الله بحقها: ﴿ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[3] .

---

(١) الإسراء : ٧٢ .

(٢) فصلت : ٤٢.

(٣) البقرة: ٢٦٩ .

إن هذه الخاصية – أصالـــة المصـــدر وربانيتـــه – مـــن خصائص هذا الدين وهى ضابطة ، أو الأصل أن تكون ضابطة للفكر الإسلامى ، حتى لا تهوى به الريح فى مكان سحيق .

إننا لو عدنا إلى أى معتقد – دون ذكر الأسماء – فلن نجـد فيه ميزانا إلهيا محكما يمكن قياس الفكر فى ضوئه ، أو ضبطه وفق قواعده ، لأن هذه الكتب قد فقدت السند أو هى مجهولـــة المنشأ متعددة فى الواقع بحسب الفرق والمذاهب مع أن الأصل واحد (توراة سامرية ، توراة بابلية ، تلمود بـــابل ، وتلمـــود أورشليم) وهكذا بل إن النص فى هذه المعتقدات هو الذى يقاس بمقياس العقل ، ومن أبرز اتجاهات النقد للكتاب المقـــدس فـــى العصر الحاضر ، النقد القائم على رفض العقل لقبول النـــص ، كالحديث عن خوف الإله من آدم ، ونزوله وحلوله وترحاله مـــع الإسرائيليات ، فضلا عن بكائه وزئيره ولعبه مع الحيتان كما فى التلمود ، وأخذه وصلبه ودفنه كما فى العهد الجديد .

ويلحق بذلك نسبة الشرك والزنا وشـــرب الخمـــر والســـلب والنهب والقتل بلا موجب إلى الأنبياء فى العهد القديم .

وتقسيم الناس من حيث المنشأ إلى مخلوقين من نطف إنسان وهم الإسرائيليون ، وإلى مخلوقين من نطف كلاب وحمير وهم : الأمميون (ما عدا اليهود) .

هذا فيما يتعلق بالخاصية الأولى التى يستقى منها العقل المسلم علومه ومعارفه الدينية بخاصة ، ويلحق بالقرآن صحيح السنة النبوية المطهرة ، وإليهما يحتكم .

الباعث الثانى : العمق الزمنى للتراث الإسلامى : وهو الذى يكسب التراث الإسلامى كل تقدير واحترام هو ، فكل الأمم تبدأ حياتها الفكرية بقليل من موروثات الآباء ، ثم تنمو الحركة الفكرية فى عصر الازدهار والرخاء ثم تمر بخطوط بيانية بين ارتفاع وانخفاض ، بل ويمحى التراث أحيانا بمحو الأمة وإن بقيت بقية تدل عليه .

أما القرآن الكريم ، فقد دفع المسلمين فى ميدان الفكر الإسلامى إلى أن لا يقفوا عند عصر التنزيل وما بعده ، بل دعاهم إلى أن يفكروا فى خلائق وعجائب وحقائق وجدت قبل أن يوجد الزمن .

فحديث القرآن عن خلق الأرض وخلق السماء وما يتعلق بهما كان قبل الزمن المعهود ، حيث لا شمس ولا قمر ، إذن فلا ليل ولا نهار ، ولا أسماء ولا مسميات ، وإنما هي وحدات زمنية عبر عنها القرآن بستة أيام سواء أكانت من أيام الله أم من أيام البشر .

وبهذا يكون القرآن قد قدم للعقل الإنساني والتراث الإسلامي حقائق لا زالت البشرية في حيرة من أمرها من أجل كشف النقاب عنها ولا يزال الاضطراب حول نشأة الكون الأولى عند غير المسلمين قائما ، في وقت قدم الإسلام فيه ما يكفى العقل المسلم فى هذا المجال ، ولو وقف التراث في هذا المجال عند حد النص لكفي ، ولكن بكل أسف دخل التراث الهندى والفارسى واليونانى فى التراث الإسلامى حيال هذا الصدد فكان منه ما كان .

ولم يكن حديث القرآن قاصرا على خلق السماوات والأرض، بل أشار القرآن إلى خلق الإنسان الأول ، وقدم للفكر الإنسانى بعامة والفكر الإسلامى بخاصة ما يكفيه .

أليست البشرية فى حيرة من أمرها منذ قرون وحتـــى الآن حول أصل الإنسان ومنشئه ، أو لسنا حتى يومنـــا هــذا نقــرأ ونسمع عن نظريات تتعلق بقضية الخلق، مع أن القرآن قد قـدم أطوار خلق الإنسان الأول ، وقطع بأنه منذ الخلق الأول كـــان إنساناً وها هى أطـــواره (تــراب - طيــن - طيــن لازب - صلصال كالفخار - حمأ مسنون - نفخ الروح) .

وقد حث القرآن المسلمين على التفكير فى الإنسان كواقـــع لا كماضٍ ، لأن البحث فيه من حيث الماضى متعـــذر ، قـال تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْـــقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْـقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[1] أى أن أحــداً مــن البشر لم يشهد قضية الخلق حتى يتحدث عنها أو يخـــبر بــها ، وكل إخبار عنها بما يخالف القرآن هو إخبار ضالين مضلين .

وأما البحث فى الإنسان كواقع فهو سبيل من سبل الهدايـــة وباعث من بواعث التقدم العلمى :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَـــاقِ

---

(١) الكهف : ٥١.

وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1] ، ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [2] وفى الأثر " من عرف نفسه عرف ربه " .

كل هذه الحقائق أتت عن طريق القرآن والسنة فى دائرة اليقينيات ، فكفت العقل المسلم مشقة البحث فيها وكان تعليقه عليها دائرا حول اليقينيات (النص القرآنى) لا الظنيات – الفرضيات البحثية . إن العمق الزمنى غير قاصر على الخلق الأول ، بل اصطفى القرآن من قصص السابقين وسيرهم ما يعد زادا للتراث الإسلامى والفكر الإسلامى حول الماضى السحيق .

فحديث القرآن عن نوح وقومه وعاد وأهله وصالح ودياره وأهله وإبراهيم وأمته وأنبياء بنى إسرائيل ، وبخاصة موسى وعيسى ، وحديث القرآن عن الصالحين والطالحين والأمم السابقة .. إلخ كل هذا يعد بعدًا زمنيا اختص به التراث الإسلامى بباعث من القرآن الكريم .

---

(١) فصلت : ٥٣.

(٢) الذاريات : ٢١.

كما أن الحديث لا يتوقف عند حد الزمن الماضى ، بل إنـــه فى عصر التنزيل قد تم تسجيل كثير من الوقائع التـــى وقعــت فى حياة الرسولﷺ حتى إن بعضها لَيرى رأى العين فى زمننـــا هذا، وهو ما أثرى التراث الإسلامى .

وقد تضمنت سور القرآن ، آيات هى من عـــداد الغيبيـــات التى لم يكشف عن معناها إلا فى عصور متأخرة عن عصــــر التنزيل ، وإن كان السابقون قد رزقوا فهمًا يتناسب مع زمنـــهم وظروفهم إلا أن البحث العلمى قد أتى بما هو أوثق على دلالـــة النص مما فهمه السابقون .

الباعث الثالث على التقدير هو : القابلية للتجديد .

فالتراث الإسلامى لا يعرف الوقوف عند حد ولا يقتصر قبوله للأفكار على زمن معين ، ولو أننا وعينا وأدركنا صيغ الخطــــاب القرآنى الموجهة إلينا ليل نهار بأن نتدبر وأن نتفكـــر وأن نعتـــبر لقلنا : إن الوقوف بالفكر والإدراك والاستنباط عند زمن معيـــن مخالف للنص القرآنى ذاته ، لأن خطاب الله ليس قاصرا علـــى زمن ولا طائفة ولا فرد أو أمة ، بل هو خطاب عام ، أوحى به

إلى المصطفى ﷺ فبلغه ، ولا يزال الخطاب يتلى للعمل بـــه ، لا للتبرك به مع ترك العمل .

إن كل من يقرأ أو يسمع هذه النصوص فهو مخاطب بـها : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَـــى قُلُـوبٍ أَقْفَالُــهَا﴾[1]،﴿ أَفَـلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًـــا كَثِيرًا﴾ [2]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُــوا لِلَّــهِ مَثْنَــى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّــرُوا﴾[3]،﴿ فَاسْـأَلُواْ أَهْـلَ الذِّكْـرِ إِن كُنتُـمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[4]، ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[5] لمــاذا نعطــل هــذه النصوص عن العمل؟ ونقول:إن السابقين قد كفونا النظــر فــى النص القرآنى، ونحن عالة عليهم ، هل صيغ الخطاب هذه بَطُلَ العمل بها ؟ وأصبح الترك مطلوبا؟ أم هى دعوة قائمة ليل نهار.

---

(١) محمد : ٢٤ .

(٢) النساء : ٨٢.

(٣) سبأ : ٤٦.

(٤) النحل : ٤٣ .

(٥) فاطر : ١٤.

ومن هنا أقول : من خصائص التراث الإسلامى قابليته للتجديد ، وإن الإضافة للتراث الإسلامى مطلب قرآنى ومطلب نبوى شريف كما ورد فى أحاديث تبلغ حداً فى الكثرة تدعو إلى التأمل والتفكر والتدبر فأنى لنا أن نعطلها عن العمل بها .

إنه ليطيب لى القول بأن ما تركه السابقون نعتبره نحن تراثا لنا ، فماذا نحن تاركون لمن يأتى بعدنا، ليكون تراثًا لهم ، نحن مطالبون شرعاً بأن تكون لنا بصمة فى الفكر الإسلامى يرجع إليها من يأتى بعدنا ليترحم علينا وليكون التواصل الفكرى موصولاً .

وعلينا ألاَّ نستبعد فتحا إلهيًا على مجتهد ما ، علّ الله أن يجعل اجتهاده سبيلا إلى تيسير الأسباب على الأمة ، علمًا بأن المجددين يؤذون دائما فى عصرهم ومصرهم .

لقد رأينا فى القرن السابع الهجرى مجددين على رأسهم ابن تيمية ، الذى أضاف إلى التراث الإسلامى كثيراً من اجتهاداته والذى أوذى بسببها فى حياته وانتهت به إلى الإقامة فى السجن حتى وفاته ، ومع ذلك فى زماننا هذا يُفْتى بما انتهى

إليه فى زمنه وبخاصة فى قول الرجل لامرأته : إن فعلت كـذا فأنت طالق ، ففعلت ، عند الأئمة الأربعة يقع الطلاق ، وعنـد ابن تيمية يُسأل الرجل أكان ينوى التهديد أم ينوى الوقوع ، فـإن قال : كنت أهَدِدّها لم يقع الطلاق المعلق ، وله على ذلك أدلـة وجيهة ، وإن قال : بل كنت عاقد النية على الطلاق إن فعلـت فلا تصرف النية إلا إلى الطلاق ، وهو ما يعمل به فى أغلـب دور الإفتاء الآن ، ومثل ذلك اجتهاده فى " علىّ الطلاق " هـل هو نذر أم يمين أم لغو ، كل ذلك مما يسـر الحـد مـن هـدم البيوت وتخريبها . ولولا ذلك لطلقـت الكثـيرات مـن نسـاء المسلمين .

كما أن الاجتهاد فى جواز طواف الحائض دون فرض شىء عليها قد فرج عن كثيرين كربهم فى أداء الحج ، وقد عقد ابـن تيمية مقارنة بين الطواف والصلاة ؛ وانتهى إلى أن الطـواف يعد تكليفاً فى الحج كالصلاة لا أنه نفس الصـلاة ؛ لأن الكـلام والسلام والأكل والمشى والخروج منه إلى الصلاة والعودة إليـه بعد الصلاة والجلوس للاسـتراحة منـه والعـودة إليـه بعـد

الاستراحة ، كل ذلك جائز فى الطواف غير جائز فى الصلاة ، فضلا عن المشى عند الأداء ، وفى الآونة الأخيرة أصبحت شركات السفر التى تتولى رعاية المناسك هى التى تتحكم فى الإقامة والعودة ، وقد تكون العودة فى أيام الدورة الشهرية بالنسبة للمرأة ولم تكن قد أدت طواف الركن (الإفاضة) فماذا تفعل ؟ أصبحت الفتوى الآن برأى ابن تيمية واجتهاده هى سمة سائر المفتين هناك .

ولذلك يقال لها : اغتسلى وتحفظى وادخلى المسجد وطوفى طواف الركن واخرجى مباشرة وحجك مبرور إن شاء الله – ولا شئ عليك من الكفارات – إن هذا يوجب علينا ألاَّ نعطل النصوص الآمرة بالبحث والاستنباط . وكل تجديد وإضافة لا يعنى محو الماضى ، بل يبقى الماضى بما يتناسب مع ظرفه وزمنه ونأخذ منه ما نحتاج إليه فى زمننا .

والجديد سيحل أزمة قد فرضت نفسها ، وتيسر للاحقين الانتفاع به إن وقعوا فى مثلها .

الباعث الرابع على التقدير هو : قابلية التراث للتنقية .

إن العلماء السابقين كانوا حريصين على كتابة كل ما يصل إسلى أيديهم باستثناء بعض المُحَدِّثين دفعهم إلى ذلك حرصهم على تسجيل العلم وعدم ضياعه، وما أشبه الكثير منهم بمن سقط منه العدس أو الأرز أو الفول على التراب ، فجمعه بيديه، وقد علَقَ به بعض الحصى، فلو أننا قمنا بتنقية هذا المجموع من قليل الحصى ما ضرّه شيء فى الوزن ، ولكان الباقى منه صالحا للاستساغة ، فأخذ القليل وإخراجه قد يسر الانتفاع بالشيء الكثير .

إن تنقية التراث أشبه ما تكون بغسل الثوب لمحو ما علق به من شوائب ، فهل يكسبه الغسل إلا نقاءً وشفافية وعلى النقيض من هذا ، إذا ما عدنا إلى تراث آخر وأخذنا منه شيئا ما فإنه يسقط رأساً على عقب ، لأن الأساس الذى قام عليه تراث غيرنا غير مقبول عقلاً ولا شرعاً ، ولا دليل عليه ، فإذا ما نقيته فكأنما قلعت الشجرة من جذرها .

أقول هذا حتى لا يخشى أحد من دعوتى إلى تنقية التراث وتحريره ، والحمد لله ليس فى جوهر الاعتقاد وأصول التكاليف الشرعية وآداب الإسلام وقيمه إلا كل خير ، وإنما هى شوائب تسئ إلى هذه الأصول ، وليتها تقدم القليل من الخير لحاضرنا

ومستقبلنا ، إذن لقلنا إن موازنة بين الإيجابيات والسلبيات يمكن أن ترجح اتخاذ القرار ، بل على العكس هذه الشوائب شر محض لا خير فيها .

والتعريف بها والكشف عنها يكسب التراث محمدة وفخاراً .
إن الحافظ العراقى – حين نفتح أحاديث إحياء علوم الدين – نجده قد كفانا مشقة الخوض فى الإسرائيليات والخرافات بعد تخريجه لأحاديث الإحياء ، وحين أُحدِّث طلابى عن المادة العلمية للخطبة والكتب التى يتم الرجوع إليها ، أقول لهم : إن عدتم إلى إحياء علوم الدين ، فإياكم أن تهملوا تخريج الحافظ العراقى له ، انظروا إلى الأثر فى أسفل الصفحة ودرجته ومصدره ، فخذوا الصحيح والحسن ودعوا الضعيف والموضوع وما لا أصل له تسلموا ويسلم كلامكم ويحسن عرضكم للإسلام ومثل ذلك الرجوع إلى تفسير ابن جرير الطبرى فيما حقق منه من أجزاء.

إن تراثنا الشفوى لا يقل خطرا عن تراثنا الكتابى ، وإن علماءنا السابقين – من الدعاة – قد حفظوا فى صباهم من الموضوع أكثر مما حفظوا من المرفوع إلى الرسول ﷺ لا يزالون حتى الآن يروون ما لا يستقيم عقلاً ولا شرعاً ، فعلى

سبيل المثال الأثر المشهور " صوم رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر " [1] قلما لم يذكره إمام في خاتمة رمضان ، ليت الأئمة يخرجونه من مكانه ليعرفوا درجته، بل إنني أطالب الأئمة بقراءة كتاب " كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من حديث على ألسنة الناس " للعجلوني وكتاب " اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة " ، والموضوعات ، سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني وغيرها من الكتب التي اهتمت بالموضوعات ليتجلى لهم مدى الصلة بين المحفوظ في العقل والموضوع في الحكم ، وفي الوقت نفسه أوصي الطلاب منذ الصف الأول في الكليات الشرعية بحفظ أربعة أحاديث كل يوم من صحيح الإمام مسلم ، قائلا له : إنه بالصبر والمداومة تستطيعون حفظ هذا الصحيح قبل الانتهاء من الدراسة في الكلية ، ليكون رصيدكم من السنة صحيحا ، فإن لم تملأوه عقولكم من السنة الصحيحة فسوف تملأونها من الضعيف والموضوع من الأحاديث ، لأن العقل وعاء المعرفة وما لم تملأوه بالمعرفة الحقة قد يملأ بالمعرفة الباطلة .

---

(١) الدر المنثور ١ / ٣٤٤ .

وبخصوص التنقية فإننى رأيت البعض يميل إلى تصفية بعض كتب التراث ، فيأتى إلى تفسير ابن كثير أو إحياء علوم الدين أو سيرة ابن هشام ويقوم بعمل مختصر لهذه الكتب وغيرها ، كما فى كتاب مختصر تفسير ابن كثير ، وموعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ، ومختصر سيرة ابن هشام .. إلخ وهذا اللون غير محمود من وجهة نظرى ، لأنه يذهب ببعض الأصل ، وقد يأتى فى الزمن اللاحق من يقوم بمختصر المختصر وهكذا فيضيع التراث ، كما أن قراءة الأصول الأولى – قبل الاختصار – يجعل ما بقى بالذهن يعدل المختصر وزيادة فإذا قرئ المختصر فإن ما يبقى بالذاكرة منه الشىء القليل والقراءة الكاملة للنص الأصلى مع تحقيقه والتعليق عليه يكسب القارئ دربة على النقد ويوفر لديه العلم بدرجة القول ، ويكسب الذاكرة خلفية عن قول المحقق حول هذا الموضوع أو ذاك ... إن التنقية غير الاختصار ، وإننى أرى بقاء النص مع التعقيب عليه فنمدح ونقدح ونحسن ونقبح فهذا ما أتصوره وأرى أنه لا يضر التراث فى شئ لا من قريب أو بعيد .

الباعث الخامس على تقدير التراث : قبوله للعالمية .

كنت ألقى خطبة فى مسجد الهداية بالإسكندرية ، وفى أحداث جنوب الوادى – الاعتداء على السياح – قلت إن قلة الوعى الدينى والجهل بالإسلام مع التغرير بالشباب هو الذى دفع هؤلاء إلى قتل السياح مع الحقد على مصر من أعدائها ، وإن الوعى الدينى كفيل بالقضاء على هذه الظاهرة ، وأقترح المطالبة بما قرره المجلس الأعلى للجامعات من ضرورة تدريس الثقافة الإسلامية فى الجامعات المصرية حتى تشكل قناعة بالإسلام ومناعة ضد التيارات الوافدة ، وبعد الفراغ من الخطبة ولارتفاع مستوى الجمهور الثقافى جاءنى من يقول : كيف تطالب بتدريس الثقافة الإسلامية فى الجامعة ، وفيها غير المسلمين ، قلت له : فلنترك العقائد في كل دين إلى دور العبادة ، مع العلم بأن جوهر الاعتقاد وهو الإيمان بالله جل فى علاه لم تخل منه أمة من الأمم على وجه الأرض ، ولم يولد إنسان على وجه الأرض إلا وهو مؤمن بقانون السببية وبأن للكون مصدراً والفرق بين الإسلام وغيره ، أن الإسلام قدم العلم بمصدر الكون فى أسلوب

هادئ سهل ميسر ، لا يتعذر على العقل قبوله بقدر ما يستعصى عليه رده .

وأما الذين أبوا الإسلام وأنكروا وجود الله فقد أبطلوا غيره محله من إله لا تستقيم صفته مع العقل أو الشرع ، أو أنزلوا المادة منزلة الله فقالوا : لا إله والحياة مادة : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾[1] فضلا عن تأليه بوذا وبراهما وغيرهما من الآلهة الوضعية .

وأما ما لا يتأتى رده ويتطلع إليه غير المسلم قبل المسلم فهى مبادئ الإسلام وقيمه ، والتى يعانى الجميع من عدم تطبيقها ، فالعدل من مبادئ الإسلام ، وهو مطلب للجميع بلا استثناء ، يلحق بذلك الحرية بآدابها وقيمها والمساواة ومنهج الإسلام فى تحقيقها والكرامة الإنسانية والشورى وأمن المجتمع والتكافل الاجتماعى . كل ذلك لا يتأتى إنكاره من قبل غير المسلمين قبل المسلمين . لقد عقد علماؤنا الأفذاذ مقارنة بين الإسلام وقوانين الأمم المتحدة وأقاموا الدليل على تفوق الإسلام

---

(١) الجاثية : ٢٤ .

على غيره ، ومن أبرز الكاتبين فى هذا الميدان ، المرحوم الشيخ محمد الغزالى فى كتابه " **حقوق الإنسان بين الإسلام وقوانين الأمم المتحدة** ، " كما كتب المرحوم / على عبد الواحد وافى كتابه " **حقوق الإنسان فى الإسلام** " وهناك كتب تبلغ جداً فى الكثرة فى هذا الأمر تؤكد كون الإسلام مؤهلاً للعالمية .

إن الرفض لمبادئ الإسلام وقيمه ناتج من التعصب الأعمى ضده أو الحقد الدفين عليه أو الجهل المطبق به .

والعجب كل العجب أن يرفض بعض البشر قبول قانون الصيانة للآلة التى صنعها الله (وهى الإنسان) وضمن دينه قانون الصيانة لها ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾ فى الوقت الذى يقبلون فيه كل قانون صيانة للآلة التى هى من صناعة بشرية ، ويقبلون رأى الطبيب فى إصلاح خلل عضوى ويرفضون قانون الصيانة الإلهى ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [1] .

---

(١) الملك : ١٤ .

وأما حقوق غير المسلمين فى ديار الإسلام ، فينبغى العلم بها للطرفين بشرط أن تطرح طرحاً يستقيم مع القرآن وصحيح السنة ، وأن نحرر التراث من الفكر الجامد المتزمت ، والمخالف فى ضوء القرآن والسنة ، ألا ليت المسلمين وغير المسلمين يعلمون أنهم فى ذمة ولى أمر البلاد وأن لهم من الحقوق مثل ما للمسلم ، كحق الحياة والحرية والكرامة والتملك والعمل والحل والترحال ... إلخ ومما أجازه الإسلام والتراث الإسلامى وتوسع فيه ويحتاج إلى تنقية الأمور الجائزة مع أهل الكتاب كالبيع والشراء والسلام والمشاركة فى الأفراح والأحزان وإعطائهم من الصدقة والزواج منهم .. إلخ .

إن من بواعث تقدير التراث الإسلامى صلاحيته لأن يطرح طرحاً عالميا ولكنه يفتقر إلى المؤهل لهذا الطرح الحسن . لا نريد أن نرسل مُعَرِّفين بالإسلام على أساس من المعارف أو الرشوة أو المجاملة ، بل لابد من اختيار من يحسنون عرض الإسلام وتراثه .

إن الشيخ الغزالى رحمه الله قال : إن الإسلام قضية عادلة فى يد محام فاشل ، يذهب هذا وذاك فلا يجد ما يطرحه من

الإسلام وتراث الإسلام إلا تقصير أو تغطية الوجه وإطلاق اللحى ومفارقة الأهل إن لم يدينوا بالإسلام ،كما ينادى بحرمة الأغانى وترك الشرك (النفاق أو الرياء) إلخ .

إن الشريعة الإسلامية فى كثير من جوانبها قابلة للطرح ، وإن الدراسات الحديثة لتؤكد مدى تأثر القانون الفرنسى ببعض مسائل الفقه الحنفى ، ولا يزال الفقه به الكثير من المسائل التى تفتقر إليها البشرية فى أيامنا هذه ، والوقوف على الموسوعات الفقهية ، كالمغنى والمقنع والمبدع والفتاوى الهندية والبيان والتحصيل والإقناع والمدونة ، يدرك ذلك جليا كل من له صلة بالتراث .

إن الأدب الإسلامى صالح للطرح العالمى ، وكم رأينا مسلسلات وأفلاما ومسرحيات أخذت من الفكر الإسلامى أو من التراث الإسلامى وأعدت على يد غير المسلمين وحسن عرضها وتم نفعها ولا يزال الكثير من التراث بحاجة إلى حسن طرح وجودة عرض ليؤتى أكله .

لقد ترجم الكثير من تراثنا إلى العلوم الأخرى ، وتم الانتفاع بما كتبه أطباؤنا وفلاسفتنا ومفكرونا في الفكر الغربي ، ولا ينكر أحد ترجمة الغرب لكتب ابن النفيس وابن سينا وابن الهيثم والرازي وغيرهم مع انتفاعه – أي الغرب – بها وهو ما يؤكد قبوله للعالمية .

الباعث السادس على تقدير التراث : سعته وشموله :

فاستمداد التراث الإسلامى أصوله من القرآن ، جعل ميادينه لا تقف عند حد أو حصر ، فنصوص القرآن تناولت العقيدة والشريعة والأخلاق ، والعلاقات الإنسانية والعلاقات الدولية وشملت الحديث عن البر والبحر والجو وأشارت إلى الأرض وطبقاتها والجبال وأنواعها والسحب وطرق تكوينها والرياح ودرجاتها والسماء وطبقاتها . وتحدثت آيات القرآن عن العلاقات الدولية فى السلم والحرب ، وذكرت المعاهدات والصلح والسلم والحرب ، وذكرت حقوق الرجال والنساء مجملة فى كثير من السور ، ولم يقف النص القرآنى عند هذا الحد ، بل دعا إلى السير والنظر وقراءة التاريخ والاعتبار

بالقراءة ، وذكر من الماضى قصص بعض الصالحين والطالحين من الإنس والجن ، حتى قيل : من علامات النبوة ودلالة الوحى ما ورد فى القرآن الكريم من محتوى علمى ، مختلف تعلقه ، منسجم بناؤه ، حيث إنك تنتقل من الحديث عن الأرض إلى الحديث عن السماء إلى الحديث عن الإنسان إلى الحديث عن التكاليف الشرعية والعلاقات الأسرية دون أن تشعر أنك تنتقل من حال إلى حال إلا من خلال المعانى لا الألفاظ والمبانى .

وأما الشمول فى التراث الإسلامى فهو مستمد من القرآن الكريم كذلك ، فإذا كانت السعة تعنى السطح المعرفى أو الميدان المعرفى فإن الشمول يعنى البناء الداخلى ، والتراث الإسلامى قد استمد هذا الأمر من حديث القرآن عن داخل الإنسان وتقسيم نفسه إلى : أمارة بالسوء ، لوامة ، مطمئنة ، وتقسيم القلوب إلى مختوم عليها ، مكشوف عنها ، كما تحدث عن الغرائز القائمة بالإنسان كالحب والكره والرضا والغضب والخير والشر والبقاء والفناء ، والتملك والإنفاق ، والوالدية والولدية .

ولا يقف أمر السعة والشمول عند هذا الحد ، بل إن التراث الإسلامي باستمداده أصوله من القرآن وصحيح السنة قد تناول عالم الغيب وجعله قريبا من عالم الشهادة ، فالحديث عن الله وصفاته وأسمائه ، والملائكة في عمومهم وخصوصهم والعرش والكرسي واللوح المحفوظ والجنة والنار وما يسبقهما من بعث وحشر وميزان وحوض ، كل ذلك من دلالة السعة في التراث الإسلامي ، وإن شاب الحديث عن هذه الأمور كثير من الشوائب التي تفتقر إلى تنقية وتصفية وتجلية ، حتى يتأتى الطرح متسقا مع النص القرآني .

إن كتب الموسوعات عندنا بها من العلوم والفنون الشيء الكثير ، واقرأ إن شئت كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي ، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، بل إن المعاجم اللغوية بمثابة موسوعات علمية أيضا وبخاصة تاج العروس للزبيدي ولسان العرب لابن منظور وغيرهما .

وفى التراث الإسلامي موسوعات فى معرفة الحيوان وفي الطب والنباتات الطبية والقيم الخلقية ، فضلا عن الموسوعات المشهورة فى التفسير والحديث والفقه والسيرة والتراجم والسير والعقائد ... إلخ .

سعة التراث وقصور البحث :-

يمكن القول : إن عنصر السعة لم يحسن الانتفاع به حتى الآن وما اكتسب رواد الفكر الإسلامي - بعد توفيق الله لهم - العالمية والنجاح فى الدعوة إلا بسعة اطلاعهم على التراث الإسلامي ، ومن يقرأ كتب الشيخ محمد الغزالي والشيخ القرضاوى والشيخ أبو زهرة وغيرهم ، يدرك أن هؤلاء قد رجعوا إلى مراجع لم يسمع عنها كثير من المُحْدثين ، بل إن بعض القضايا الواردة فى الفقه الإسلامي والتى يمكن على أثر الانتفاع بها أن تحل مشاكل شتى فى ميدان العلاقات الأسرية قد أهمل النظر إليها أو تم المرور عليها مرّ الكرام . أو لأن الموروثات الفكرية قد حالت دون الانتفاع بهذه

العلوم الإسلامية - (٣)

(١) كنت أطالع فتوية تيمية في كتاب "الفقه" في مذهب الإمام أحمد فوجدت فيه الكثير من التيسير في مسائل النظر في الصيام ، وفي كتاب الإقناع الحنبلي في فقه المذهب الحنبلي وجدت بحثا طيبا في حل مشكلات الأيمان والنذور - بل في اختلافات ابن تيمية بمجموعه وبرؤية يتمكن من استخراج كثير من الأحكام التي تيسر على الناس سبل الحياة ، وأيسر منه وأوسع ما كتبه ابن القيم في مؤلفاته المتعددة .

إن أزمة كثير من علماء المسلمين والمفكرين المسلمين والمسلمات تتجلى في الرغبة السابقة في اقتناء الكتب ، وقد لا يتوفر لهم شوق إلى قراءتها بقدر ما يتوفر لهم الشوق إلى اقتنائها في فترة عملي في السعودية – جزى الله أهلها كل خير عن الإسلام والمسلمين – قاموا بتسليم أساتذة الجامعات الكثير من المؤلفات الإسلامية ومنها مسند الإمام أحمد بشروح مستفيضة وعدد مجلداته (٥٠) وكذلك كتاب المغني لابن قدامة وعدد مجلداته (٣٢) وفتاوى ابن تيميه .. وعدد مجلداتها (٣٤) وإتحاف السادة (١٨) مجلداً . أنظر إليها وأسأل نفسي كم قرأت من هذه الكتب وهل بالإمكان قراءتها فيما تبقى من عمر الإنسان ؟ كم في هذه الكتب من كنوز ولآلئ وأسرار وأستار لو نقب عنها لحلت مشكلة المسلمين في كثير من جوانب الحياة .

إننا مشغولون بجمع التراث واقتنائه دون اشتغالنا بكشف خباياه وخفاياه ، مَنْ مِنْ علماء الأزهر لا يوجد في مكتبته ، تفسير القرطبي والرازي وابن كثير وابن جرير والألوسي والسيوطي والبحر المحيط والجلالين والنسفي والبغوي والخازن والنيسابوري وغيرها ، ومع ذلك كم قرأنا منها ؟

ويلحق بهذا كتب السنة وشروحها ، وبخاصة فتح الباري ، وعمدة القاري وإرشاد الساري والكرماني وعون الباري ، ومسلم بشرح النووي فضلا عن كتب التراجم والسير ، ويبقى السؤال قائما : كم قرئ من هذه الكتب وكم فهم مما قرئ وكم عُمل به بعد الفهم ؟

الباعث السابع على تقدير التراث : أنه إيجابى النزعة فى أخص خصائصه :

من يقرأ القرآن وصحيح السنة فى أخص القضايا التى تسقط الإنسانية وتهدرها وهى (القتال) يدرك إلى أى مدى إنسانية هذين المصدرين وما نتج عنهما من تراث إسلامى ؛ فالقتال وسيلة وليس غاية ، والاعتداء به محرم : ﴿ **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إن الله لا يحب المعتدين** ﴾[1] ويجب إيقافه إذا توقف العدو عن القتال ﴿ **فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً** ﴾ [2] ، ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ** ﴾[3] ،﴿ **وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ** ﴾ [4] .

ومن آداب الإسلام – بها تأثر المسلمون وتناولوها فى فكرهم بالبيان – حرمة استخدام أسلحة الدمار الشامل كتسميم

---

(١) البقرة : ١٩٠ .

(٢) النساء : ٩٠ .

(٣) البقرة : ٢١٦ .

(٤) الأنفال : ٦١ .

الآبار وحرق الديار وحرمة الحرق بالنار وحرمة قتل النساء والأطفال وحرمة قتل الرهبان والمعتزلين للقتال ، وقد حرم الرسول ﷺ الغلول والغدر ، كما أوجب الإسلام عدم الإجهاز على الجرحى أو التمثيل بالموتى ، أو القتل صبراً مع وجوب دفن الموتى من المشركين كما يدفن قتلى المسلمين .

إن من يقرأ كتابات الأوزاعى - رحمه الله - وكتابات يحيى ابن آدم القرشى وأبى يوسف محمد ، بل وكتابات أبى حنيفة النعمان يدرك مدى إيجابية النزعة الإنسانية فى التراث الإسلامى ، لقد سوى أبو حنيفة بين الرجل والمرأة فى القصاص وسوى بين الذمى والمسلم كذلك ، وانتصر لنصوص العموم ، كما أن ما حَرُم إيقاعه من المسلم ضد المسلم وغير المسلم سواء فالزنا والسرقة والحرابة والقذف كل ذلك مما يوجب الحدَّ إذا اقترفه المسلم بحق غير المسلمين .

إننى أقول هذا الكلام فى ضوء فهمى وفقهى للتراث الإسلامى الصحيح وأعى فى الوقت نفسه النزعات السلبية التى تسللت إلى التراث الإسلامى ، كما فى تفسير قوله تعالى :

﴿ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [1] مع أنه لو قيل هذا الكلام فى حياة الرسول ﷺ لعنف قائليه ، لأنه يتعارض مع الكرامة الإنسانية ومع الحق والعدل ومع النهى عن ظلم أهل الكتاب ومع التوحيد والذى لا خضوع فيه إلا لله جل فى علاه .

إن بعض كتب الفقه الإسلامى - إن لم تكن كلها - قد تناولت غير المسلمين فى بعض الأحيان بما يتعارض مع ظاهر نصوص القرآن وظاهر أحاديث الرسول ﷺ وظاهر روح الشريعة الإسلامية . وقد لاحظت شيئا عجيبا وغريبا وهو : أن اللاحقين قد اقتفوا أثر السابقين وهم يتناولون أحكام أهل الذمة ، مع أن الفقه الإسلامى فى بعض الجوانب السلبية المتعلقة بهؤلاء كان نتاج سوء صنيعهم فى عصر الأمويين ابتداء ، فلما تجاوزوا الحد وجاء عمر بن عبد العزيز أراد أن يحفظ على الدولة الإسلامية هيبتها وقانون سيادتها فألزم هؤلاء بالشىء الكثير الذى لم يرد له أصل فى السنة ولا فى عهد الخلفاء الراشدين ، ومع هذا رأينا التراث صوراً مكررة للنسخة الأولى التى صدرت فى

---

(١) التوبة : ٢٩ .

عهد عمر بن عبد العزيز وقليل من خلفاء بنى أمية ، فى وقت لا ننكر فيه جهد الإمام الأوزاعى وغيره فى تصحيح المفاهيم حول أهل الكتاب .

وأما النزعة السلبية ضد المرأة عامة والمرأة المسلمة بخاصة فهى نتاج موروثات الآباء الجاهلية والقبلية ، ومع حرص الإسلام على اقتلاع جذور الجاهلية فى شقها السلبى من فكر وعقل وقلب المسلمين ، إلا أن بقية قد بقيت تؤكد وجود آثار هذه الجاهلية لدى المسلمين ، فالنظرة إلى المرأة بشؤم ، وكراهية التبكير بها والحرص على تغطيتها لوجهها ومنعها من الكلام فى المحافل والمجالس المحلية والدولية ومنعها فى الريف من الخروج إلا بالليل وتغطيتها وجهها بقماش أسمر ... إلخ كل هذا من بقايا الجاهلية .

ولا تزال النظرة إلى المرأة على أنها مصدر الفساد وباعث الغواية وسبب الانحراف قائمة لدى كثيرين ، ناسين أن الرجل يشاركها هذا الشيء ، ولكن لا يعاب الرجل على صنيعه بقدر ما تعاب المرأة على فعلها .

ويكفى أن هدف الدعوة الإسلامية هــــو تحقيــق الســعادة والسلام .

الباعث الثامن على تقدير التراث : أنه يعكـــس مــرآة الفكر لدى المسلمين فى عصور الازدهار والانحطاط :

ويمكن من معرفة مستوى الفكر الإسلامى والحركة الفكرية ، وعلينا أن نعتبر بعصور الازدهار الفكرى وأن نـــدرس أســباب التردى .

وقد قام بمراجعة الفكر الاسلامى فى عصره كل من الغزالى فى كتابه " تهافت الفلاسفة "وقد تم الرد عليه فى كتاب " تــهافت التهافت " كما قام ابن تيمية فى نقده للمنطق وأعاد النظر فيما تم ترجمته فى عصور الازدهار واجتهد فى وضع البديل له .

كما تم نقد التراث التفسيرى فى القرن الماضى مـــن قبــل الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه تفسير الجواهر والإمام محمد عبده فى كثير من محاضراته ورسائله والشيخ رشيد رضا فـــى مقالاته – كلون من المراجعة للفكر الإســـلامى فـــى العصــر الحاضر – فضلا عن حركة التحقيق فى الجامعات الإسلامية .

إن كتّاب القصص والتاريخ والسير وأهل الفن ليرجعون إلى التراث الإسلامي في كل عصر من عصوره ويستحضرون واقعه الاجتماعي والثقافي ويعدون الأفلام والمسلسلات في ضوء التراث الإسلامي ، وقد أدركنا ذلك واضحا في مسلسل " أبي حنيفة النعمان" ، " عمر بن عبد العزيز "، "هارون الرشيد " وغيرهم من الراحلين .

الباعث التاسع على تقدير التراث: إعجاب غير المسلمين به:

وثناء أهل الشرق والغرب – من غير المسلمين – عليه ، ومن يقرأ كتاب " شمس العرب تسطع على الغرب " يدرك ذلك، كما أن المستشرقين المعتدلين والمنصفين قد امتدحوا هذا التراث وأثنوا عليه بكل خير ومن يراجع كتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور/ محمد البهي والاستشراق " والمستشرقون أحقاد وحملات " للمستشار محمد عزت الطهطاوي " والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري " أ . د محمود زقزوق ، يدرك ذلك فكيف بنا ننكر أو نقدح أو نعيب تراثاً امتدحه الآخرون .

الباعث العاشر : التراث جهد بشر يجب احترامه :

إذا ما استثنينا من التراث ما اعترف به الواضعون ، وما نقله عن بني إسرائيل – لهوى في النفس – الناقلون ، وما كذب به المتحدثون ، وما سوى ذلك فهو جهد أو اجتهاد وكلاهما محل تقدير في الإسلام ، أخذا من قوله تعالى :﴿ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾[1] ، وفي الحديث الشريف : [من اجتهد فأصاب فله أجران – أجر على اجتهاده وأجر على إصابته – ومن اجتهد فأخطأ فله أجر] .

إن جمهرة العلماء من مدوني التراث قد أفنوا أموالهم وقضوا أعمارهم في تسجيل هذا التراث ، حتى إنه لينسب إلى الإمام ابن الجوزي أنه قد جمع قلامات أقلامه ووصى أن يسخن بها ماء غسله ليكون ذلك شفيعا له عند الله .

لقد امتطوا الدواب ، وشدوا الرحال ، وقطعوا الفيافي والقفار في طلب العلم وجمعه وتكوينه ومات منهم في طريق الذهاب وطريق العودة من مات ، وكفى أنهم دونوه على سرج من زيت وكتبوه بقلب وسطروه من نفقات أقواتهم فهنيئا لهم بما قدمت أيديهم وجزى الله محسنهم وغفر لمسيئهم .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .

" بواعث تقديس التراث "

العوامل السابقة للتقدير دفعت البعض إلى أن ينزل التراث الإسلامى منزلة القرآن الكريم ، وأن ينظر إليه نظرة تقديس ، وأن يسلم بالجملة المشهورة " ليس فى الإمكان أبدع مما كان " بل رأى البعض أن التراث هو الإسلام وأن الإسلام هو التراث، وقد بدت مظاهر التقديس للتراث على أرض الواقع فى الجوانب الآتية :-

أولاً : الرجوع إلى الماضى فى كل جديد :

وإن لم يكن للجديد صلة بالتراث الإسلامى أو أن الماضى قد ورد به من البيان ما عفا عليه الزمن ولا يستقيم مع المستجدات العلمية ، وسأشير إلى نقطتين بهذا الصدد .

النقطة الأولى : ما ورد فى القرآن الكريم من تفسير للآيات الكونية إما أن يتعلق بالدلالة اللغوية أو بالحقائق العلمية .

والدلالة اللغوية تصلح للماضى والحاضر فى الأعم الأغلب إلا ما تغير بتغير الزمن من حيث الدلالة .

وأمّا ما ورد فى كتب التراث بشأن الحقائق العلمية المتعلقة بالآيات الكونية فإن أكثره مأخوذ من الفكر اليونانى أو الهندى أو الفارسى أو الإسرائيلى ، ويمكن القول : إن أكثره مأخوذ من التراث الإنسانى فلا يتأتى جعله بيانا للنص الكونى فى عصر العلم التجريبى التطبيقى ، ولنأخذ مثلا على هذا قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة : ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء ..**﴾ [1] ، بالرجوع إلى تفسير الفخر الرازى نجده قد انتصر إلى ثبات الأرض ، وعدم دورانها وكونها مركز الكون ، وكون الشمس تدور حولها ... إلخ

وعندما ظهرت النظريات المتعلقة بالمجموعة الشمسية ، وكون الشمس مركز الكون وكون الأرض تدور حولها ... إلخ قام مفتٍ فى إحدى الدول العربية بإنكار كروية الأرض ودورانها وأعلن ثباتها وكونها مركز الكون الإنسانى ... وألف فى هذا الأمر بعض الأعمال العلمية .

---

(١) البقرة : ٢٢ .

كما أن إنكار الصعود إلى القمر قد ورد ضمن هذه الأعمال لأن السابقين لم يقولوا به أو لأن القمر من السماء ولا يتأتى الصعود لها ، فضلا عن الزعم بأن هذه خدع قام بها الغرب فى صحراء بعض دول آسيا لإيهام الناس بذلك .

إن بعض الطلاب بهذه الديار لينكرون حتى الآن الصعود إلى القمر من قبل البشر ويقولون بثبات الأرض وعدم دورانها .

إن الرجوع إلى الماضى أو التراث فى مجال الكونيات هو لون من التخلف لأن البحث العلمى قد قطع مراحل غاية فى التقدم فى هذا المجال ، والحق يُرى أهل كل زمن من دلائله فى الكون ما لا يُرِى الزمن الأول ، والتجربة أصدق من النظر .

إن الناظر فى تفسير قوله تعالى :﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[1]، ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [2]، ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ

---

(١) ق : ١.

(٢) القلم : ١ .

خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾[1] يدرك عجبا فى التراث وإن يعجب الإنسان مما هو فى التراث بهذا الصدد فأشد عجبا منه أن يرفض المفسرون المحدثون تفسير بعض الآيات الكونية فى ضوء نتائج البحث العلمى ويزعمون أن ذلك من " الدخيل فى التفسير " .

النقطة الثانية : آيات الله الإنسانية . وهى محل اهتمام القرآن ، والسابقون قد تناولوها فى ضوء علومهم ومعارفهم ، وكم للفقهاء القدامى من فقه افتراضى ، كشف الزمان عنه فى المستقبل إنهم لم يقفوا عند حد الماضى فى تفكيرهم ، بل تصوروا الكثير مما يمكن وقوعه ووضعوا له الأحكام ، أذكر أننى كنت أقرأ فى الصف الأول الثانوى فى حاشية الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع حكما فقهيا حول خروج الماء من بطن الإنسان ، وكان تحليل الفقهاء فى المذهب الشافعى أن الماء إذا خرج من تحت السرة ينتقض به الوضوء وإذا خرج من فوق

---

(١) لقمان : ١٦.

السرة لا ينتقض به الوضوء وكنت أعجب لهذا الكلام ، حتى كبر سنى ، وتقدم العلم وقمت بزيارة بعض المرضى فى المستشفيات ورأيت أناساً قد ركبت لهم خراطيم لسحب الماء أثناء بعض العمليات تخرج من الجنب أو البطن .... إلخ ورأيت آخرين قد ركبت لهم خراطيم لسحب الدماء أو الرشح ... إلخ ومنها ما هو فوق السرة ومنها ما هو تحت السرّة ، وتذكرت ما قرأته منذ سنين عدداً وترحمت على هؤلاء أثابهم الله .

واليوم وأمام المستجدات الفقهية والأحكام العلمية العملية وقد أنعم الله على البشرية بعلاج كثير من الأمراض مثل زرع القلب، الكبد ، القرنية ، نقل الكلى ، زرع الشعر ... إلخ أرى كثيرين يعودون إلى التراث لطلب الحكم الشرعى حول الحِلّ والحرمة ، مع أننا لو بحثنا أو طلبنا الحكم الشرعى فى ضوء كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ لكان الأمر أيسر وأسهل ، إن عندنا قول الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (١) ،﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ

---

(١) الحج : ٧٨.

-﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[1] ، وفى الحديث [**وإن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**] [2] ، [**هلك المتنطعون**] [3] . ونعقد موازنات ومقارنات بين المصالح والمفاسد ، وبين الضرر الأدنى والضرر الأكبر ، ونصدر الحكم الفقهى من لجنة جماعية بالحل أو الحرمة فى ضوء المستجدات ونستبقى التراث فى هذا المجال لزمنه ولأهله .

إن الذين أباحوا ، قد دفع الخوف بعضهم إلى تأصيل فتواه خشية أن يتهم فى عقيدته ، فبحث فى التراث ورأى أن القدامى قد أجازوا قطع الإصبع وأكله لسد الرمق حتى لا تكون الهلكة ، ورأوا قول من قال : إذا خاف جماعة على أنفسهم الهلكة وانقطعت بهم السبل جاز لهم ذبح أحدهم وأكله ، وقالوا : من سار مع نبى ولم يكن معهما من الطعام إلا ما يكفى أحدهما وجب أن يعطيه إياه ليكون له البقاء – أى النبى – وتكون الهلكة لغيره .

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) البخارى ١ / ٢٣ رقم ٣٩ .

(٣) صحيح مسلم ٤ / ٢٠٥٥ رقم ٢٦٧٠ .

وإذا فرضت الضرورة نفسها لتخفيف وزن السفينة حتى لا يكون الغرق بكل من فيها ، جاز الاقتراع وإلقاء بعض الركاب فى البحر لنجاة الباقين .

لماذا هذا التكلف ونصوص القرآن كلها سماحة ، وروح التشريع قائمة على الرحمة ، لماذا لا نرد كل المستجدات إلى القرآن والسنة فإن يسر لنا الأمر انتهينا إلى حكم شرعى يتعلق به ، وإن لم يتيسر لنا الأمر رجعنا إلى أئمتنا لنستأنس بآرائهم ، ومن الذى قال بإغلاق باب الاجتهاد والقرآن يقول : **﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾** (١) وهل أولو الأمر – أى العلماء – محل الرد هم الأحياء أم الأموات أم هما معا ؟

ثانياً من مظاهر تقديس التراث : إنزال المذهبيات العقدية والفقهية والسياسية والأخلاقية منزلة الدين نفسه .

الذى أفهمه أننا فى مجال الاعتقاد مطالبون بما أمرنا به فى كتاب ربنا : **﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ**

---

(١) النساء : ٨٣ .

كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [1]

وقول الرسول ﷺ : **[الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره]** [2]ولم يرد فى كتاب ربنا ولا سنة نبينا نص على أن الإيمان الصحيح يشترط فيه أن يكون على مذهب السلف أو الخلف أو الأشاعرة أو الماتريدية أو السنة أو المعتزلة أو الخوارج أو المرجئة أو الكرامية أو الجبرية أو الجهمية أو المعطلة ... إلخ .

وإنما النص على ما ورد فى النص القرآنى مقروناً بلازم الإيمان وهو العمل ، والصحابة رضى الله عنهم آمنوا ولم يسأل أى منهم عن تصوره لربه وعن التأويل والتفويض وعن الأصول الخمسة ، بل إن الرسول ﷺ كان يكتفى بسماع الشهادة من قائلها مع التزامه بلازمها ونهى أن يساء الظن بمن يقولها كما فى الحديث " **هلا شققت عن صدره**"[3]وفى الآونة الأخيرة تم

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) صحيح مسلم باب الإيمان والإسلام والإحسان ، والبخارى باب سؤال النبى ﷺ .

(٣) الطبرانى ٢ / ١٩٠ ، مجمع الزوائد ١ / ٢٧ .

النظر إلى بعض المذهبيات بنفس النظرة إلى الدين فمن لا يدين بالسلفية فهو مشكوك فى اعتقاده ، ومن لا يتبع أهل السنة فعقيدته مشوبة بشائبة ما، والعجب كل العجب أن بعض الأقسام العلمية حين توافق على تسجيل رسالة علمية لها صلة بالأشخاص ، يضعون ضمن المخطط عبارة (عقيدته) ويصدرون حكما عليه بأنه أشّعرى أو سلفى أو خلفى أو معتزلى ..إلخ وقلت لواحد منهم : أنىّ لكم بالكشف عما فى الصدر ونبش ما فى القبور وهل كل كلام ظاهر يتفق مع ما تكنه السرائر ؟

إن بعض الدول العربية لا تأذن لعلماء الأزهر بتدريس مادة العقيدة الإسلامية لا لشىء إلا لأنهم أشعريون قبوريون أو قلْ شركيون بدعيون .

هذا عن مذهبية الاعتقاد والتى وصلت إلى حد التقديس وأصبح تبادل الاتهامات فى المعتقد وصفا لازماً لأهلها ، حتى رمى بعضهم بعضا بالخروج عن الإسلام أو الفساد فى المعتقد .

فإذا انتقلنا من دائرة الخلاف بين بعض المغالين من أهل السنة والشيعة ، وجدنا كلا منهما يرمى الآخر بالكفر والفسوق والزندقة ، واقرأوا كتاب الشيعة والدروز للأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر وما كتبه موثقا بحق الشيعة وما انتهى إليه من أدلة كونهم تأولوا فأخطأوا أو فسقوا وخرجوا عن الإسلام ، لأن من يقول بتحريف القرآن وعدم ختم النبوة وإيجاب سب الصحابة ولعن أبى بكر وعمر بخاصة إلخ هل يكون مسلما ؟

ويقابل ذلك ما كتبه صاحب كتاب " متى وجدت الشيعة " وكتاب " فصل الخطاب فى إثبات تحريف كتاب رب الأرباب " ورميهم أبا بكر وعمر بسرقة الخلافة وعدم تنفيذ وصية الرسول ﷺ ، كل ذلك دليل تقديس التراث والذى ينبغى إعادة النظر فيه بروح طيبة ولغة عصرية ، كما فعل السيد / موسى الموسوى فى كتابه : الشيعة والتصحيح ، والشيخ مصطفى المراغى والشيخ شلتوت فى رأيهما المعتدل بشأن الشيعة ، والدكتورة عائشة المناعى فى بحوثها المتعلقة بالشيعة .

وأما المذهبية الفقهية فقد ساء استخدامها كمصدر سعة للأحكام الشرعية وسبيلا من سبل يسر التعبد والتصرف ، ولا يخفى على أحد من أهل العلم أن أئمة المذاهب لم يدعوا أحداً من المسلمين إلى اتباع مذاهبهم ، بل كانوا يحذرون من الاتباع دون معرفة الدليل ويقول أحدهم : رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، ويقول الثانى : هذا آخر ما قدرنا عليه ، فمن رأى غير ما رأينا فله الذى رأى ، ويقول الثالث : إن صح الحديث فهو مذهبى وكانوا يجلّون بعضهم ويحترمون اجتهاد غيرهم ، وينزل الواحد منهم على مذهب إمام البلد التى نزل بها احتراماً وتقديرا .

ومع تعاقب الأئمة الفقهيين الزمنى ، إلا أننى لم أر نقدا وجه من أبى حنيفة إلى الإمام مالك أو من الإمام الشافعى إلى الإمام أبى حنيفة وبمضى الزمن ، تحولت المذاهب من اجتهادات فى فهم النص إلى دين يتبع وبدأت الأسئلة تترى : هل يجوز لشافعى أن يأتم بحنفى ؟ وما حكم الزواج بين الشافعى والحنفية أو العكس ؟ وعلى أى المذاهب يعقد القِران وتجاوز

الأمر المدى والسيل الزبى ، فعقدت إمامات أربع فـــى صحــن المسجد الحرام ، يقوم فقيه من كل مذهب بإمامته أتبـــاع هـــذا المذهب حول الكعبة ، وقد تم ذلك فى مراحل متأخرة من القرن الماضى (العشرون الميلادى) حتى تم إلغاؤه وحمـــل النـــاس على إمام واحد .

وببداية علم الفقه المقارن ونماء هذا العلم ، أصبح كثير من المتعصبين لمذهبهم يردون المذاهب الأخرى ويبذلون كل جـــهد ممكن لإبطالها وكأنها جاءت من الأرض فى الوقت الذى جـــاء فيه مذهبهم من السماء .ومن يقرأ الصراع حول نقض الوضـــوء بالسلام على المرأة أو مس الذكر أو عدد الرضعات المحرمـــات أو زكاة الخُضر والفواكه يدرك أن المذهبية الفقهيـــة كـــادت أن تكون ديناً فى العصور المتأخرة .

وكلما كان الباحث أو الفقيه محدود المعرفة قليل الاطـــلاع غير موضوعى فى فكره كلما كانت العصبية أشد وآكد ، وكـــم اتهم بعض الدعاة البعض الآخر بالجـــهل أو ببطـــلان الفتـــوى أو عدم صحتها لا لشىء إلا لجهلـــه بمصـــدر فتـــوى الآخـــر

أو لتعصبه لمذهبه ، ومن كانت لديه سعة أخذ من اجتهادات الفقهاء ما يناسب حال السائل ، هب أن راغباً فى صلاة الجمعة لم يدرك مع الإمام إلا التشهد فَلِمَ نضيق عليه ونقول له : أتمم الصلاة ظهراً ، على مذهب الإمام الشافعى ، لماذا لا نقول له أتمم الصلاة ركعتين على مذهب الإمام أبى حنيفة ، ما أظن أحداً أعرف بمذاهب الأئمة من تلاميذهم ، ولو كانت آراؤهم مقدسة ما أقدموا على تغييرها ، وهؤلاء تلاميذ الإمام أبى حنيفة قد خالفوه فى بعض المسائل حتى اشتهر الكلام عنها بالقول : عند الإمام كذا وعند الصاحبين كذا ، والإمام الشافعى قد اجتهد أتباعه فى المذهب وللمزنى والنووى والرافعى وغيرهم رأيهم فى بعض القضايا الفقهية ، ولو كان فكره مقدساً ما خالفوه . إن التراث الإسلامى فى المذهبية الفقهية ظاهرة إيجابية كما أنه ظاهرة سلبية .

فهو ظاهرة إيجابية حتى نختار بين البدائل بحسب مقتضى حال السائل وعملا بالحديث الشريف " ما خير الرسول ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما "وقوله عليه الصلاة

والسلام يوم النحر فى حجة الوداع " لكل سائل عن أمر ، لَمْ يرع فيه الترتيب فى فعل الرسول (افعل ولا حرج) [1]" ومن هنا تحل مشاكل المسلمين إذا أخذنا من فقه جعفر الصادق وابن حزم الأندلسى والليث بن سعد والأوزاعى وغيرهم .

وأما كون التراث الفقهى ظاهرة سلبية فمن جرّاء النظر إلى تراث مذهب بعينه على أنه الصواب وحده وغيره الخطأ المحض وتحريم تقليد إمام آخر غير الإمام المتبع وطرح الأسئلة حول قضية التلفيق والتوفيق وقضية الأوْلى بالإمامة الشافعى أم الحنفى ، وهل يعيد الشافعى الصلاة إذا تأكد له أن الإمام حنفى ، فضلا عن التّراشق بالسهام والرمى على صفحات المجلات لإبطال مذهب وإعلاء شأن مذهب آخر .

إننى أقول على المنبر ولطلابى فى المحاضرات : ادعوا الناس إلى الصلاة وحثوهم عليها وقولوا لهم : إن الله سيسألكم عن الأداء ولكن لن تسألوا على أى مذهب صليتم ، وصوموا

---

(١) البخارى ، جـ١ ، ص ٤٣ ، حديث رقم ٨٣ .

وزكوا وحجوا دون حملهم على مذهب معين ، لأن المذهبية ليست من الإسلام فى شئ . وإنما هى ميسرة للأداء فقط .

إن التكاليف الشرعية قد تفرض العدول عن مذهب معين إلى آخر وإلا تعذر البديل ، كما فى طواف الحائض والنفساء ، ورمى الجمار قبل الزوال . ويرى بعض المالكية أن من نسى طواف الركن أو تعذر عليه أداؤه صح حجه إن كان قد أدى طواف القدوم ... إلخ .

أقول للداعين إلى التعصب لمذهب بعينه ائتونى بنص صحيح السند والمتن صريح الدلالة على أن اتباع مذهب بعينه فرض ، وهل كانت المذهبية الفقهية إلا بعد ملاقاة الرسول لربه بمائة وخمسين عاما وأما المذهبيات السياسية والتغنى بالعصبية الجاهلية فهى نزعة شعوبية وليس لنا أن نغرس فى الأفراد العصبية لقبيلة أو وطن بقدر ما نغرس فيهم العصبية للإسلام ، **﴿ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** [1] ، **﴿ إنما**

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1] ، إن الأشعار والأزجال التى تمدح بلدا دون غيره ، وتقدح بلدا دون سواه هى نزعة شعوبية ، والإسلام منها براء .

وأما العصبية الأخلاقية فهى أوضح ما تكون فى المذهبيات الروحية وتراثها الصوفى واضح البيان فى هذا المجال .

لقد سلك المسلمون سبلا لا يتأتى حصرها ، واستعصى على اللاحقين مخالفة السابقين فى أمرها ، مع أن منشأ هذا الاتجاه محل خلاف بين المسلمين ، إلا أن أصوله ثابته والخطأ والخلاف هو فى أسلوب التطبيق ، فالذكر والشكر والتوبة والاستغفار والزهد وقيام الليل والتضرع والخشوع والإنابة ... مما جاء به الإسلام ، وقد تحقق لأناس بعد عصر الراشدين الريادة فى هذا المجال ، وبدا لهم أتباع بلغوا حداً فى الكثرة ، ثم وضعت أوراد وأذكار ، ثم صارت – فى نظر هؤلاء – الدين ، والدين من هذا الاعتقاد براء ، ثم تعصب أهل كل طريقة لشيخهم ولأوراده وأذكاره وأنكروا على غيرهم ما هم عليه مع

---

(1) الحجرات : ١٠.

أن فى بعض هذه الأوراد من الطلاسم ما يستعصى على العـــام والخاص فهمه ، ومات صاحبه دون أن يكشف عنـــه ، كقولـــهم (أحمى حميسا أطمى طميسا) .

إنها العصبية للتراث الصوفى الطريقى والذى وصل إلى حد التقديس .

ثالثا : مِن مظاهر التقديس : الدفاع عما لا يستقيم الدفـــاع عنه عقلا ولا شرعاً . وأخَص فى ذلك بالذكر أمرين .

الأمر الأول : بعض الأحاديث النبوية الشريفة .

الأمر الثانى : بعض الآراء المنسوبة إلى كائن من كان غير رسول الله ﷺ .

والأمر الأول : قد وضعت خطوط حمراء حـــول صحيـــح البخارى ومسلم وعلى هذا جمهور المسلمين ، باستثناء الشـــيعة والفرق المارقة عن الإسلام والمحسوبة عليه فى نفس الوقـــت ، كالبابية والبهائية والقاديانية والفرخانية والدروز والعلويين ...

مع أن العلماء قالوا : إن الحديث إن صـــادم ظـــاهره آيـــة قرآنية وتعذر تأويل معناه ، أو صادم حديثا أقوى ســـندا منـــه

أو تعذر قبوله عقلا فهو موضوع ، وبين الإمام البخارى والإمام مسلم خلاف فى عدد لا يذكر من الأحاديث لاعتبارات رآها كل منهما عند تدوين صحيحه وإسقاط هذه الأحاديث لا يضر بالكلية لأنها لا تتجاوز أصابع اليدين من حيث العدد .

وسوف أضرب مثلا على هذا من صحيح **الإمام مسلم جـ٤ رقم ٢١٤٩ ورقم الحديث ٢٧٨٩.** عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال : **[خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل] .**

ذكر الإمام البخارى فى تاريخه وابن كثير فى تفسيره والقرطبى فى جامعه والشيخ شعيب الأرناؤوط فى تخريجه أن هذا الحديث موقوف وليس مرفوعا إلى الرسول ﷺ ونصوا على أنه روى عن أبى هريرة عن كعب الأحبار ، وأن أبا هريرة

وهم ورفعه إلى الرسول ﷺ والحديث يتعارض ظاهره مع القرآن الكريم ، لأنه جعل خلق الأرض وحدها فى سبعة أيام ، مع أن القرآن قد صرح فى سورة فصلت بأن خلقها تم فى يومين وأن طرح البركة فيها من الأرزاق والأقوات فى يومين وأن مجموع الخلق فى أربعة أيام ، ثم سويت السماء بعد ذلك فى يومين فكان مجموع الزمن ستة أيام ، وردت الوقائع مفصلة فى سورة فصلت – قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ...** ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ (٢)

ومن الناحية العقلية نقول :

---

(١) فصلت ٩_١٢ .

(٢) الأعراف : ٥٤ .

كيف حددت الأيام ولم تكن الشمس ولا الأرض ، وأين حظ السماء من الزمن وكيف يصرح القرآن بأن خلق الأرض في أربعة ويصرح الحديث بأنه في ستة وآدم في اليوم السابع ... ومع هذا يقاتل كثيرون في إثبات صحة هذا الحديث ويجعلون التأويل سبيلاً للإثبات ، فيفرقون على مقدار يوم السبت .. إلخ .

إن الشيعة قد نظروا في مرويات السنة وطعنوا في الكثير منها وإن كانت العصبية قد غلبت عليهم في رد روايات البخارى ومسلم واعتماد أئمتهم سبيلا للسنة دون غيرهم ، إلا أن بعض ما ذكروه قد نقده غيرهم من أهل السنة والجماعة كلطم موسى عين ملك الموت ووضع الجبار قدمه في جهنم ... وتفصيل ذلك واضح في كتاب (متى وجدت الشيعة) لإسماعيل البغدادى صـ٢٥٠ – ٢٥٦ .

والأمر الثانى : الآراء المنسوبة إلى شخص ما غير الرسول ﷺ وقد ظهرت هذه العصبية في صدر الإسلام ، حتى إن بعض الصحابة كان يقول : قال فلان : أى من الصحابة –

فكان الرد عليه بقول الرسول ﷺ وفى رد لأحد العلماء قال لخصمه أقول لك قال رسول الله ﷺ وتقول قال فلان ...

لقد نظر المنصفون فيما نسب إلى الرسول ﷺ من أحاديث وجعلوها درجات لاعتبارات علمية ، ولم يقبلوا كل ما نسب إلى الرسول ﷺ كحقيقة مسلمة بل قالوا : حديث صحيح – حسن – ضعيف – مشهور – متواتر – معلق – معضل – موقوف – مقطوع ... إلخ .

أوَلا يدعو هذا إلى النظر فى أقوال الرجال وتمييزها ، وتحسين الحسن ورد السئ .

إن للشيخ الغزالى كتبا فى نقد المرويات وتجلية التراث وتصحيح المفاهيم بحاجة إلى أن يقرأها الأئمة برعاية وعناية أخصها بالذكر :

١–تراثنا الثقافى بين الشرع والعقل .
٢– الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا .
٣– السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث .
٤–ليس من الإسلام .

لقد انتقد الشيخ الغزالى – رحمه الله – ابن حجر العسقلانى ، كما انتقد غيره وبخاصة : حرص ابن حجر على تصحيح رواية الغرانيق العلا مع أن كل علماء المسلمين قد ردّوها ، كما انتقده فى تصحيح رواية خروج محدثين من عسقلان ...

إن نسبة الرأى إلى فلان لا تكسبه قدسية ، فما العصمة إلا للرسول ﷺ ، وكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا ما صح عن رسول الله ﷺ .

رابعاً : من مظاهر التقديس : الرغبة فى فرضه بالإكراه ، وتحريم وتخطئة ما سواه من أفكار دينية ، وهذا الأمر ليس بالجديد فى تاريخ الإسلام ، ففى صدر الإسلام طُلب من الإمام مالك أن يكتب كتابا فى السنة ، فكتب كتابه " الموطأ " وأراد ولى الأمر حمل الناس عليه كرهاً ، ولكن الإمام مالك رفض وقال : إن الصحابة قد تفرقوا فى الأمصار وسمع الناس منهم عن رسول الله ﷺ ... إلخ . ولو وافق الإمام مالك على هذا الرأى لحمل الناس كرها على الموطأ .

كما أراد المأمون حمل الناس على رأى المعتزلة (القول بخلق القرآن) وبسبب هذا أوذى الإمام أحمد وكانت فتنته المشهورة .

وفى العصر الحاضر بدلاً من أن تتضافر الجهود لحمل الناس على القرآن والسنة ، تبذل الجهود لحمل الناس على الفكر المتعلق بالنص سواء أكان سلفيا أم شيعيا أم سنيا أم اعتزاليا أم من الفرق الأخرى .

وفى القرن الماضى وبين الحين والحين تهب ريح الفتنة الفكرية بين هذه الطوائف، والمكتبة الإسلامية مملوءة بالكتب التى تقدح فى فكر الآخر وتسّبه وتفسّقه وتخرجه أحياناً من حظيرة الإسلام .

لقد رأى الشيعة أصولا للإيمان غير التى وردت فى الحديث الشريف والمعتزلة لهم أصولهم الخمسة المشهورة ، والسلفيون لا يشغلهم إلا التوحيد وجعلوا له أسماء ومسميات وأشكالاً وألواناً فى غاية الغرابة ، وأهل السنة أخذوا بظواهر النصوص . وكل يبذل جهده لنشر مذهبه بدلا من نشر الإسلام .

إن الغرب الآن ليرى فى الإسلام أديانا شتى ، لأنه لم ير ذلك مذهبا على أرض الواقع بل يراه دينا ، لأن لكل طائفة أئمتها ومساجدها ومبادئها وطرق عبادتها وتبعيتها السياسية مما يعطى تصوراً ما عن الإسلام .

ليتنا نبذل فى التعريف بالقرآن وصحيح السنة نفس القدر الذى نبذله فى نشر المذهبيات ، وإن كان ذلك متعذراً لأن نشر القرآن والسنة يتطلب الإحاطة بالفكر القائم حولهما ، وهو متأثر لا محالة بمذهب ما من المذاهب أو فرقة ما من الفرق .

خامسا : من مظاهر التقديس : اعتبار التجديد والمجددين مارقين عن الإسلام .

مع أن نصوص القرآن تأمر بالتأمل والتفكر والتدبر والاعتبار والاستنباط . إلا أن كل محاولة للتجديد تقابلها عاصفة هوجاء من الغضب ولو أن الفكر قوبل بالفكر ، وردت الحجة بالحجة لهان الخطب ولكن خير وسيلة لرافضى التجديد وحراس القديم أن يرموا كل مجدد بما يستقبح فى زمنه ، فإن كانت الزندقة هى أسوأ وصف فى المعتقد رمى بها المجدد ، وإن كان

الإلحاد أو الشيوعية هما أقبح الأوصاف تم إلصاقها بـالمجدد ، وهناك ما هو أبعد من هذا .

إن الأمر لا يقف عند حدّ الاتهام العقدى ، وهو أسوأ أنـواع الاتهام الذى يوجه إلى إنسان ما ، وكفيل بأن يحرقه بين أهله لقد قرأت كتابا عنوانه "منهج المدرسة العقلية فى التفسير" حـرص فيه المؤلف على تصيد كل كلمة قبيحة اتهم بها أحـد العشـرة الواردة أسماؤهم فى أى مجلة أو صحيفة ، من هـؤلاء علـى ما أذكر :

جمال الدين الأفغانى – محمد عبده – رشيد رضـا – يوسـف الدجوى – محمد فريد وجدى – محمود شـلتوت – طـه حسـين ... وغيرهم ، وكان الرمى بالفسق أو الماسونية أو الكفر ...

ورغم سعة علم الإمام محمد أبى زهرة ، وما تركـه مـن تراث فى المكتبة الإسلامية ، إلا أن خصومه بذلوا كـل جـهد ممكن لإقامة الدليل على أنه كان ماسونيا ،وما درى هؤلاء أنـه لا سبيل للعلم بخبايا هؤلاء إلا بالعيش معـهم والجلـوس إلـى موائدهم والسير ظاهرا فى فلكهم حتى يكون الرصد ، فليـس

من رأى كمن سمع ، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. ﴾ (١)

فالرؤية غير السماع .

لقد قيل لنا عن علماء أجلاء فى بدء الدراسة فى الجامعة إنهم شيوعيون ، علمانيون ... وعلة الوصف أن هؤلاء العلماء كانوا يركبون السيارة فى الوقت الذى يركب فيه الآخرون حماراً ، ويلبسون نظيفا فى الوقت الذى كان القائلون يرتدون مخيفا .

فلما سمعنا عنهم كنا على طرفى نقيض : من رأى فيهم – أى المتهمين فى الدين – مجددين فرح بهم وحذا حذوهم وأدرك سرّ العداء والكراهية لهم ، ومن غلبته العاطفة لم يستطع أن يتحرر من الحكم وأن يخرج من الوهم ، ولا يزالون يسألون : أصَلُح حالُ فلان أم على ما هو عليه ؟

لقد تم الزج فى السجن بكثير من المجددين ، ولم يكن الحكام فى يوم من الأيام هم السبب فى هذا، وإنما حرس القديم وعَبَدة التراث ،

---

(١) البقرة : ٢٦٠ .

ومُؤثرو الركود والسكون على الحركة والظهور ، ومن يراجع سبب اعتقال ابن تيمية أكثر من مرة وغيره من العلماء يدرك ذلك ..

إن كثيرين فى هذا الزمن عندهم خواطر ، ولديهم أفكار ، منهم من جاهر بها لأنه يراها خادمة للإسلام ، فدفع ثمن ذلك غاليا ، ومنهم من يدخر أفكاره فى صدره حتى يلقى ربه ، ومنهم من يكتب فى حدود المقبول وهو قليل ، ويستبقى فى صدره الكثير خشية الاتهام والرمى بالزندقة ...

سادساً : من مظاهر التقديس للتراث : إعادة طرح ما عفا عليه الزمن وما لا يتأتى طرحه .

لا ننكر أن الدولة تقوم بجهد مشكور حول نشر التراث ، وفى السنوات الأخيرة ظهرت مكتبة الأسرة كمشروع حضارى يجمع بين الماضى والحاضر الفكرى ، وتقوم الهيئة المصرية العامة للكتاب بطبع الكثير من كتب التراث ، كما قامت الهيئة العامة لقصور الثقافة بإصدار سلسلة الذخائر بثمن زهيد وهى من خير الأعمال ، كذلك يقوم المجلس الأعلى

للشئون الإسلامية ببعض الإصدارات التى تجمع بيـــن القديـم والحديث .

إلا أن من بين الإصدارات كتباً لا تساوى الحبر الذى كتبت به والورق الذى سكب عليه ، فهل هى خبط عشواء ، أم الرغبة فى فقدان الهوية ، أم الحرص على مزج الفكر الراقى بـــالفكر الهابط ، أم الرغبة فى طرد الإيجابيات وإحلال السلبيات محلــها من الأفكار ، أم هو الباعث المادى لدى دور النشر ، أم العاطفة الدينية الجياشة ... ، أسئلة حائرة واستفســارات غــير جــائرة تبحث عن إجابة .

أى فائدة فى نشر كتاب يدعو إلى الكفر ، ويجاهر مؤلفـــه بمدح إبليس ويعلن أنه إمام الموحدين ، لأنه رفض السجود لغير الله ومع علمه بالعقوبة المترتبة على المعصية فقد قبلها واستبقى توحيد الله قائما ويقول صاحب الكتاب نفسه : إن التثليـــث هـو أساس الأشياء ورأس الأعداد وبـــه قـام الكـون ، إن الواحـد لا شىء ... هذا ما نشر بحق ابن عربى وقد انتقده الشيخ محمـد الغزالى فى كتابه " تراثنا الثقافى بين الشرع والعقل " ويلحق بهذا

الكتاب (فصوص الحِكَمْ) وكتاب (قوت القلوب لأبى طالب المكى) و(مكاشفة القلوب المقرب من علام الغيوب) للغزالى و(عرائس المجالس) للثعلبى .

إن مثل هذه الكتب تطرح لبعد اقتصادى محض ، فالمؤسسات الطباعية ترى فى هذه الكتب قبولا لدى العامة والدهماء ، وهى تخاطب العاطفة وتغيب العقل ، وعلينا أن ننشر ما يصلح الفكر ، لا ما يضر العقل .

سابعاً : مما يكسب التراث قداسة : الحديث عنه بأسلوب المدح المطلقِ دون تناوله بشىء من النقد ، وهذا الأسلوب يجعل الناشئة تعتقد بقدسية التراث ، كما أن مدح فلان من الأئمة يجعل قليلى المعرفة يعتقدون أنه معصوم من الخطأ ، فإذا قيل قال فلان ، قُبِل كلامه وكأنه كلام الله –حا شاء لله –، وإذا وجه النقد إليه قيل للناقد : ومن أنت حتى تنقد ؟

إن علينا أن نبين لطلاب العلم والناشئة أنه لا تلازم بين منزلة فلان وفكره ، فقد يكون التوفيق فى الأمرين وقد يكون التردى فى الأمرين وقد يكون التوفيق فى الفكر دون السلوك ... ولا داعى لذكر الأمثلة .

إن ورود كلام فى كتاب لا يكسبه قدسية – خلا القرآن – ولا حجة لقول القائل : ذكره فلان فى كتابه كذا ، فالإمام الطبرى قد نص على أنه دون فى كتبه ما لا يقبل وجعل العهدة على الراوى ، والإمام الغزالى قال عن نفسه : أنا مزجى البضاعة فى علم الحديث.. إلخ . وكم تاب وأناب إلى الله بعض من وضعوا الكثير فى السنة النبوية وصرحوا بما وضعوه بعد حفظه عنهم وتعذر إسقاطه عند التدوين وإن خضع لنقد المرويات .

هذه هى بواعث التقدير من وجهة نظرى والتقديس من وجهة نظر المقدسين .

جوانب التحفظ على التراث عندنا ، ومسئوليتنا اليوم نحو الأجيال القادمة ؟

إن لى بعض التحفظات على التراث رغم إعجابى وتقديرى الشديدين له ، ومن جوانب التحفظ ما يلى :-

أولاً : جمعه بين الغث والسمين فى مجال العقيدة والشريعة والأخلاق ، وليس بالإمكان أن أفصل القول فى هذا الأمر ولكنى سأشير إلى نقطتين :

الأولى : قضية الألوهية فى الإسلام ، القرآن قدم بعض التصور عن الله وعن ذاته ، وبعض أسمائه الحسنى ، وعلاقته بخلقه وعلاقة خلقه به ... وجماع ذلك فى قول الحق :**﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾**[1] ، **﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾**[2]وقد قبل الصحابة كافة النصوص المتعلقة بذات الله على ما هى عليه دون الدخول

---

(١) الشورى : ١١ .

(٢) الأنعام : ١٠٣ .

فى تفاصيلها ، أما الخوض فى الذات الإلهية فـــهو مـــن شـــأن اليهود حين أتوا إلى الرسولﷺ وقالوا له يا محمد صف لنا ربك ما طوله ما عرضه ما يده ؟ فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّـــمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[1].

وغاية ما أثر عن الصحابة والتابعين أسئلة تتعلق بـــالقرب والبعد للذات الإلهية ، وشأن ربنا الآن ...

وعندما دخلت الفلسفة الفكر الإســـلامى ، وببـــاعث مـــن الصراع بين المسلمين وغير المسلمين ، وعلـــى أســـاس مـــن التمكين فى العلم والترف فى البحث وجدنا التراث فـــى مجـــال العقيدة جامعاً بين أمور وخائضا فى قضايا لا يتـــأتى الخـــوض فيها شرعاً مثل تناول ذات الله بالمناقشة . هـــل الإلـــه جوهـــر وعرض أم لا جوهر ولا عرض . هل الصفات عين الـــذات أم قائمة بالذات ، هل تكلم الله بحروف وأصوات أم خلق الكلام فى كائنات أخرى وتكلم عن طريقها ، كل هذا مما اشتغل به علمـــاء

---

(١) الزمر : ٦٧ .

الكلام وخاضوا فيه وقد أدى ذلك دوره في وقت الفلسفة الميتافيزقية ، مع أن النهى عن الخوض فى ذات الله وارد في السنة مقرونا بالعلة " **تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا** " [1] روايات ست فيها بعض التغاير ذكرها صاحب فيض القدير ، وعقب عليها المناوى فى الشرح قائلا : وهذه الأحاديث من طرقها المتعددة يجبر بعضها بعضاً وترقى إلى مرتبة الحسن .

والآن لا يزال المشتغلون بتدريس مادة التوحيد وعلم الكلام ينقلون ذلك ويدرسونه للطلاب ، مع أن المنطق الآن منطق العلم التجريبى وليس منطق البحث الميتافيزيقى فى أكثر الجوانب ، ويمكن تناول قضية الألوهية فى ضوء المستجدات العلمية على أساس من قانون العلم الحديث ، وكثير منه فى القرآن والكون ، كقانون السببية والغاية والنظام والرعاية والعناية والكمية والمقدار ... إلخ .

---

(١) إتحاف السادة المتقين ١٠ / ١٨٠ ، مجمع الزوائد ١ / ٨١ كشف الخفا ١ / ٣٧١ .

وأما الذات الإلهية فالعلم قد أكد وجـــود أشـــياء لا معرفـــة لكنهها ويتعذر إنكارها مثل :الأثير- الكهرباء -الروح -الروائح بشقيها فوجودها حقيقة وكنهها مجهول ، ولله المثل الأعلى .

إن الغث كثير فى التفسير وشرح الحديث وروايات التـاريخ والسير والتراجم والموضوعات الأدبية كصبح الأعشى ونهايـــة الأرب ... إلخ .

الثانية : قضية الكسب والاختيار ، أو عمل الإنسان ، وهل هو مخير أو مجبور ... إلخ .

لقد نهانا الرسول ﷺ عن الخوض فى القدر ، وفى الحديـث إذا ذكر القدر فأمسكوا ، ومع ذلك لا تزال هذه القضيـــة محـل مناقشة فى العصر الحاضر ،.وكل يستمد زاده من التراث .

ثانياً : خوض التراث فيما لا يتأتى الخوض فيه وبخاصــة فى مجال العقيدة ســـواء مــا يتعلــق بالإلـــهيات أو النبـوات أو السمعيات " .

إن سبيل العلم بالغيب هو الوحى فقط أخذا من نص القـرآن الكريم : **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِــهِ أَحَـدًا۝ إِلاَّ مَـنِ**

ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾[1] والرسول ﷺ أعلنها صريحة " **ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب** " ، " **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** " .

وقد كفانا القرآن وصحيح السنة الحديث والبحث عن الإلهيات والنبوات السابقة والسمعيات كالبعث و[illegible] والحشر والصراط والميزان والجنة والنار ، وقدم ما يكفى ويشفى .

إلا أن السابقين قد جمعوا التراث الإنسانى حول هذه القضايا وملأوا الكتب وبخاصة الرقاق والمواعظ منها بالخرافات والخزعبلات . انظر إلى مرائى كثيرين للذات الإلهية وحديثهم عنها ، بل بعض ما نسب إلى الرسول فى مرائيه النومية للذات الإلهية ، انظر إلى ما كتب حول الصحف المنشورة ، والميزان وكيفيته وشجر الجنة وثماره ، وشكل زبانية جهنم ، انظر إلى الحديث عن نار جهنم فى تراثنا مما لا دليل عليه من قرآن ولا سنة . واحذر أخى أن تكون ببغاء تردد دون أن تعقل أو تعى ، فلستَ آلة صماء تنطق بما وضع فيها من مادة علمية

---

(١) الجن ٢٦ – ٢٧ .

بل أنت عاقل ومسئول ، فاحذر أن تخوض مع الخائضين واعلم أن سبيل العقيدة الحقة الوحي ، ودور العقل التلقى والتمحيص لا القبول بلا تفكير ولو كان الحديث متصلا بالألوهية والنبوة .

ثالثاً : كثرة الافتراضات فى التراث ، وذكر كثير من الشبهات والتى أصبحت زاداً فى العصر الحديث للمستشرقين ، ويظهر لى أن الذى كان يورد الشبهة هو الشيطان على لسان كاتبها من المسلمين وأن الرد كان من بنات عقل الكاتب ، فكانت الشبهة غاية فى القوة وكثيرا ما يكون الرد غاية فى الضعف ، وكما يقال : إن الشبهات كانت ترد نقدا وإن الردّ كان نسيئة . بل إن من الشبهات ما نسب إلى إبليس كما فى قولهم : إنه أتى الإمام الشافعى وقال له : يا إمام ما تقول فيمن خلقنى كما اختار واستعملنى فيما اختار وحكم على بالخلود فى النار أعدل فى ذلك أم جار ؟

وكان رد الشافعى عليه : يا هذا لو خلقك كما تختار أنت لظلمك ولو خلقك لما يختار هو فلا يسأل عما يفعل وهو الفاعل المختار . فهل مع هذا الرد شفاء للصدر ؟

ذكر الرازى فى تفسيره وهو من أكثر المفسرين إيراداً للشبهة والافتراضات قوله " ثم إن الله تعالى أجاب دعاءه – أى إبراهيم – وجعله – أى الحرم – آمنا من الآفات ، فلم يصل إليه جبار إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وهنا سؤالان – أى من الرازى .

(**السؤال الأول**) أليس أن الحَجَّاج حارب ابن الزبير وخرّب الكعبة وقصد أهلها بكل سوء وتم له ذلك ؟

الجواب – من الرازى – لم يكن مقصوده تخريب الكعبة لذاتها بل كان مقصوده شيئًا آخر ...) .

أقول : ليته ما طرح الأسئلة ولا ذكر الإجابة عليها . وهل هذا ردّ يشفى الغليل ؟

إن كتب علوم القرآن فيها أمران :

الأمر الأول : ما يدافع به عن الإسلام وبخاصة ما كتبه المعاصرون .

الأمر الثانى: ما يتهم به الإسلام وبخاصة ما كتبه السابقون.

لقد ذكرت الشبهات المتعلقة بالغضب من بعض الصحابة بسبب جمع القرآن ، وذكرت بعض المصاحف المخالفة والنص على روايات تؤكد التصرف فى بعض السور كسورة الأحزاب وسورة البينة والنص على سورتى الخلع والحفد ، وإسقاط المعوذتين من بعض المصاحف الشخصية ووجود زيادات فى بعض المصاحف ونقصان فى البعض الآخر ، إذا كانت أمانة التدوين قد فرضت نفسها فإن بعض المدوَّن قد صار علينا لا لنا .

إن مؤلفى كتاب الهداية فى الرد على إظهار الحق لرحمة الله الهندى قد جمعوا شبهاتهم وحجتهم من تراثنا ، ناسبين إلى الجزء والصفحة فى أغلب الأحيان وإن لم نستبعد العصبية والهوى من بعضهم .[1]

---

(١) ورجو الرجوع إلى المباحث التالية فى هذا الكتاب :

الباب الأول : الفصل الثانى عشر فى أحوال محمد صـ٥٩ – ٧٨ .

الباب الثانى : الفصل الثانى عشر فى جمع القرآن وبعض أحواله .

الباب الثالث : الفصل الثالث فى بعض مناقضات القرآن والأحاديث .

خذ مثلا قول من قال فى تفسير قوله تعـالى : ﴿ وَاللاَّتِـي تَخَافُونَ نُشُـوزَهُنَّ فَعِظُوهُـنَّ وَاهْجُرُوهُـنَّ فِـي الْمَضَـاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ...﴾ [1] إن الهجر هو القيد . من هجرت البعـير إذا قيدته ، فالمرأة التى يخشى منها النشوز يجب أن يوضع القيد فـى رجليها وتظل حبيسة البيت حتى يستقيم حالها ومما ورد فى تفسـير الطبرى الشىء الكثير ..

إن عدم تنقيتنا للتراث يمكّن خصوم الإسلام من دعوتـهم ، ومن تشويه صورة الإسلام فى الغرب ، والذى لا يفـرق بيـن الفكر الإسلامي وبين الإسلام وبين سلوك المسلمين ، بل الكـل عند هؤلاء هو الإسلام .

رابعاً : فقدان المنهجية العلمية :

وأنا أتكلم عن أول باعث من بواعث تقدير الـتراث قلـت : أصالة المصدر الذى يستقى منه وهو القرآن ، هذا المصدر قـد وضع آدابا للبحث العلمى لو روعيت عند تدوين الـتراث لمـا وجدنا فيه الذى هو فيه مما يستقبح ، فالقرآن قد أمرنا بـالتحرى

---

(١) النساء : ٣٤ .

عند السماع : ﴿ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[1] واشترط الدليل ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2] ، ﴿ لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾[3] ونهى عن اتباع الظن فى العلوم والمعارف : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾[4] وحرم قبول الموروثات الفكرية والعقدية ممن ليسوا أهلا لها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾[5] .

لو روعيت هذه الآداب عند التدوين لكان للسابقين العذر فى إسقاط كثير من المدون ، كما أن التفرقة بين العلم واللهو مطلوبة وقد خلط كاتبو التراث بين العلم واللهو ومن يقرأ العقد الفريد وغيره من كتب التراث يدرك ذلك .

إن فقدان المنهجية العلمية فى التراث باستثناء بعض المحدّثين يظهر فى الجوانب الآتية :

---

(١) الحجرات : ٦.

(٢) البقرة ١١١ .

(٣) الكهف : ١٥ .

(٤) يونس : ٣٦ .

(٥) البقرة : ١٧٠ .

١- عدم النسبة عند التدوين إلى المنقول عنه سواء أكان النص قرآنا أم سنة أم نقلاً عن الغير . وهو جهد المحققين الآن وإن كـــان الكثير من الكتب المنقول عنها قد فُقِدت أو أن عدم ذكرها مقصود .

٢- السطو من بعض القدامى على الإنتاج العلمي لغـــيرهم بدعوى إباحة سرقة العلم ، وسوف أضرب على ذلك مثلين :

الأول : قمت بتحقيق كتاب " الأجوبة الفاخرة فى الرد علـــى الأسئلة الفاجرة " للقرافى وطبعتُه ونشرتُه ســـنة ٨٥ / ١٩٨٦ م وبعدها بدأت بتحقيق كتاب " المنتخب الجليل من تخجيـــل مـــن حرف الإنجيل " للمسعودى – ووجدت تطابقا تاماً فـــى بعـــض الصفحات فى ثنايا الكتاب وطابقت بينهما وأدركت فى النهاية أن القرافى قد نقل ذلك عن المسعودى لأنه أسبق من القرافى مولـــداً ووفاة دون أدنى إشارة من القرافى لهذا .

الثانى : يوجد لابن القيم كتاب قيم عنوانه " أحكــــام أهـــل الذمة " وهو مطبوع ومنشور فى مجلدين ، قام ابـــــن الرقـــاش بتأليف كتاب عنوانه " المذمة فى استعمال أهل الذمة " كتب لـــه

مقدمة خفيفة من عنده ثم نقل محتواه من أحكام أهل الذمة لابـــن القيم ، وهناك مؤلفات تتعلق بالسرقات الأدبية منها والعلمية [1].

٣- مخالفة الأساليب المتبعة فى النقل والترقيم ومـــا هـــو معروف فى الأوساط العلمية .

خامساً : تغليب المعارف والعلوم النظرية على المعـــارف والعلوم التطبيقية . فمع أن نصوص القـــرآن شـــاملة للعلـــوم الإنسانية والعلوم الكونية . إلا أن القدامى قد ركزوا على العلـــوم والمعارف النظرية ، فكل كلمات القرآن أعُربـــت واســـتخرجت منها المعانى والبيان والبديع وكشف عن أصلها ومـــا أصابـــها من تطور ... إلخ ويلحق بـــهذا الأحكـــام الشـــرعية المتعلقـــة ولو بكلمة واحدة كالخلع أو عدد مخـــدود مـــن الآيـــات كالربـــا والصوم ... إلخ .

---

(١) وقد طلب منى أحد الأصدقاء بيان موقف الإسلام من إنشاء دور عبادة لغـــير المســـلمين فى ديار الإسلام ، ورجعت فى ذلك إلى كتب الفقه لدى المذاهب الأربعة والى كتب التفســـير فى النصوص ذات القرابة أو الصلة المعنية بهذا السؤال ، فوجدت أن المتأخرين قـــد نقلـــوا عن المتقدمين العناصر والعبادات والشواهد ، ولم أجد تفرقة إلا فى القبـــض والبســـط عنـــد المعالجة مع أن الجوهر واحد ، وقد يكون الخطأ قائما بأول من كتب ولم يستدرك عليه مـــن تبعه .

وأما الآيات الكونية وهى تعدل سُبع (واحد علـــى ســبعة) الآيات القرآنية فإن الكتابة عنها فى تراثنا غاية فى القلة وإلا فأين الكتب التى تحدثت عن السماء ، الرياح ، النجـــوم ، الشـــمس ، القمر ، البحار ، الجبال ، الأنهار ، بمثل الحديث عـــن الســـابق ذكره .

أين الحديث فى تراثنا عن الزراعة والصناعة والتجارة فـــى القرآن والسنة مع أنه قد ذكر الكثير عنها ، إنه التقصير فى هذا الشق المعرفى .

سادسا : **فقدان التوازن بين العقـــل والعاطفـــة** . فتراثنـــا عاطفى والنزعة العقلية فيه محدودة وهى أكثر وضوحاً فى فكر المعتزلة والذى لم يلق رواجاً أو قبولاً من كثيرين ، كمـــا أنـــه أكثر وضوحاً فى تفسير الفخر الرازى ولذلك اتهم بأن فيه كـــل شئ إلا التفسير . إن النزعة العاطفية هى أوضح ما تكون فـــى تراثنا فى الحديث عن الرسول ﷺ وعن الأولياء والصـــالحين ، فضلاً عن آل البيت .

فأما الحديث عن آل البيت فغُلوّ بعض الفرق الإسلامية فيـــه لا يخفى على أحد ، حين زعموا العصمة وعلـــم الغيـــب ونـــور الكون والوصاية بالإمامة . وأما الأولياء فقد نسبت إليهم كرامـــات لا يصدقها عقل ولا يؤكدها نص . إن الرسول ﷺ كان دائم النهى عن الإفراط فى التعبير عن العاطفة نحوه بخاصة مـــن طريـــق القول أو من طريق الفعل . فأما طريق القول فهو واضح فى نهيه أحد الصحابة عن القول له (ما شاء الله وشئت) ونهيه عـــن قـــول الصحابة (إن الشمس كسفت لوفاة إبراهيم ابن الرســـول عليـــه الصلاة والسلام فقام وقال : إن الشمس والقمر آيتان مـــن آيـــات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ثم تـــلا قـــول الله تعـــالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّـمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُـــدُونَ ﴾[1]

ومن أقواله ﷺ" لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم" وأما النهى عن تجاوز العاطفة فِعْليا أو عمليًا فهو أوضح ما يكون فى نهيه الصحابى عن السجود له ، قائلا : هذا ما تفعلـــه العجـــم

---

(١) فصلت : ٣٧.

بملوكها وأنا لست بملك . إنما أنا عبد الله ورسوله ﷺ وقوله لمن أخذته رجفة حين وقف أمامه : هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ... إلخ .

لقد كُتبت كتب فيها غلو بالغ بشأن الرسول ﷺ منها ما نسبه إلى قبضة من نور وجه الله ، وإلى سبقه فى الخلق على آدم ، وإلى وجوده مكتوبا على باب الجنة ، وإلى عجائب وغرائب نسبت إليه كما فى " الشفا " للقاضى عياض "والوفا بأحوال المصطفى " لابن الجوزى ، "ودلائل النبوة " لأبى نعيم ، و"مولد شرف العالمين للمناوى" ، "والسيرة النبوية " لابن كثير وغيرها من الكتب ، وقد حقق بعضها وتم تحسين الحسن وتقبيح القبيح منها إلا أن بعض الدعاة فى إطار إلهاب العواطف وإرضاء الجماهير ورغبة فى الدعاية يأخذ من هذه العواطف وينثر على قلوب الناس لينال الرضا – فليحذر الداعية أن يرضى الخلق ويغضب الحق وأن يتجاوز حدود النص : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ** ﴾[1] وعليه أن يمدح الرسول بما ورد فى

---

(١) فصلت : ٦ .

القرآن ، وما تحدث به عن نفسه من فضل ربه عليه ومـــن الله التوفيق .

مسئوليتنا اليوم :

أرى من الواجب عليّ أن أطرح تصورا مختصرا لتحريـر الفكر الإسلامى المعاصر من المسالب التى أشير إليـــها ، وإذا كان السابقون قد تركوا لنا ما تركـــوا فمـاذا نحـن تـاركون للاحقين ، وما دورنا كهمزة وصل بين الماضى والمستقبل ، إن من واجبنا ما يلى :

١-وجوب إنتاج فكر علمى دينى يتوافـق مـع قواعـد البحث ويرتبط بروح العصر ويستمد أصوله من الثوابت .

وأقول للدعاة بخاصة : إن الفكر يسطر على الورق ، وعلـى العقل وإن الإدانة فى كلتا الحالتين لا تقل عن الأخـــرى ، وإن خطبة الجمعة بخاصة هى كلمات تنقش فى العقول ، فـاتقوا الله فيما تقولون ، وراقبـوه فيمـا تنطقـون ، واحـترموا عقـول المستمعين فلا تذكروا الأساطير ، ولا تسـتفيضوا فـى القيـل والقال .

وعليكم بالحقائق وذكر الدقائق العلمية وعندكم سعة من العلوم والمعارف فى القرآن والسنة والتاريخ والسير ، فقدموا للناس ما ينفعهم واحرصوا على رضا الله وإن أغضبتم الناس وما أظن شيئا يرضى الله سوف يغضب الناس .

أكثروا من القراءة لعمالقة العصر كالرافعى والمازنى والعقاد فى الأدب وشوقى وحافظ إبراهيم وعلى الجارم فى الشعر والإمام شلتوت وأبى زهرة والغزالى والقرضاوى وابن عثيمين وابن جبريل وابن محمود فى الفكر الإسلامى ، والبهى وإقبال والنشار فى الفلسفة ، وفى السيرة إلى خاتم النبيين وفقه السيرة والرحيق المختوم وعودوا فى التراث التفسيرى إلى الرازى وابن الجوزى والقرطبى ، وفى التراث الحديثى إلى النووى والكرمانى وإرشاد السارى ، طوفوا كالنحل فى بساتين المعرفة وقدموا للناس عسلاً مصفى واعلموا أن العقول الآن وقادة نقادة وأنها غير مستعدة لقبول الخرافات والأساطير ، حكّموا عقولكم فيما تقرأون إن لم يكن حُكْمُ على المقروء قد صدر ، وزنوه بميزان القرآن والسنة ، فإن وافق فاطرحوه وإن لم

يوافقهما فاطرحوه . وشتان بين طرح وطرح . ما أيسر القصص الهادف والمواعظ البناءة وتراثنا فى هذا المجال مفتوح كما فى جامع العلوم والحكم ، وأدب الدنيا والدين ، وإحياء علوم الدين وغيرها .

دعوا القصص المكذوب ، الموضوع لأجل الإقناع بشىء ما ، مع أن مخالفته للنص ظاهرة .

فى شهر رمضان الماضى جاء أستاذ من كلية اللغة العربية بالقاهرة ليلقى موعظة فى مسجد بمدينة أجا دقهلية وتطرق للصلاة على الرسول ﷺ وفضلها وذكر قصة أطال فيها وضيع الوقت وانتهى إلى أن طالحا مات وأسود وجهه بعد وفاته فحزن ابنه لحاله ، وبعد فترة وجد وجه أبيه أبيض والنور منه يتلألأ – بعد الوفاة – أخذته سنة من النوم فرأى أباه فى المنام فسأله عن سبب تغير وجهه من السواد إلى البياض فقال له : كنت قد صليت على الرسول ﷺ فجاءنى ومسح وجهى بعد موتى ، فهو النور الذى تراه ... إلخ .

دعوة صريحة إلى العصاة أن يطمئنوا وإلى الحشاشـــين أن يستبشروا وإلى الكذابين أن يفرحوا ، فتكفيهم صلاة واحدة علـــى الرسول ليتغير حالهم كما فى الرواية ، أهذا ما يســـيطر علـــى العقول وما نربى عليه الأجيال .

وأما التسطير فى الكتب فأقول العـــبرة بمحتـــوى الكتـــاب وقيمته لا بعدد ورقه وجودة طباعته ، كم من كتب حرقها خـــير من بقائها ، وإن يعجب الإنسـان مـــن شـــئ فالعــــجب مـــن المعاصرين أن يأخذوا من أساطير السابقين ما ينشـــروه علـــى الأسوار وفى الأسواق ، مما يتعلق بأحكـــام الجـــان والســـحرة الأشرار وكيفية ممارسة السحر وكيفية الوقاية منه ، فضلا عـــن العذاب الأخروى ومعارك آخر الزمان وعلامات الساعة والتوســـع فيها مما لا نص صحيح صريح فى الدلالة عليه إلخ .

٢- عدم قبول الماضى بكل ما حوى وطـــوى وعـــدم رُده بكل ما فيه من درر وجواهر .

إن تراثنا الثقافى هو مصدر تفكيرنـــا وزاد عقلنـــا - بعـــد القرآن - منه ننطلق ، فإن كانت بداية الانطلاق صحيحة جاءت

النتيجة حسنة وإن كانت نقطة الانطلاق خطأ خرجنا من سباق المعرفة .

لست مع المطالبين بالانقطاع الكلى عن التراث لأن هذا مستحيل ومن خاصية تراثنا التواصل شئنا أم أبينا لأنه مرتبط بالقرآن والسنة ، وليس بإمكان الأمة الآن أن تضع فقهًا كاملاً شاملا فى العبادات والمعاملات والأنكحة والحدود والجنايات والجهاد والسير بمعزل عن الماضى ، بتقاصر الهمم وفتور العزائم . إذا كنا عاجزين عن الإحاطة بالتراث الفقهى الموجود فأنى لنا بالاستغناء عنه ووضع بديل له .

ولا يعنى هذا القبول المطلق دون اعتبار لما سبقت الإشارة إليه . لقد ظهرت تيارات شتى فى الآونة الأخيرة تطالب بالتخلى التام عن التراث أو تفسير نصوصه وفق مستجدات العصر أو الاستغناء عن السنة كتمهيد للاستغناء عن القرآن فى مرحلة لاحقة وهذا ما لا يقره عقل ولا دين .

٣- تخصيص لجان للاجتهاد فى ميادين العلوم الشرعية ، يقوم عملها على أساس من النصوص قبل المذهبيات الفقهية . حتى

لا نعطل النصوص الآمرة بالاجتهاد فى القرآن والسنة ، وطرح ناتج الاجتهاد على الرأى العام ، حتى لا يكون الاضطراب فى الحكم الفقهى .

٤- تنشيط دور المؤسسات الدينية ودعمها أدبياً (بالأشخاص) وماليًا حتى تؤتى الثمار المرجوة منها . إن هذه المؤسسات فى مصر وخارج مصر غاية فى الكثرة ، وناتج فكرها الآن هو تراث المستقبل سواء نتج ذلك عن دار الإفتاء أم مجمع البحوث الإسلامية أم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية أم رسائل الماجستير والدكتوراه فى العلوم الشرعية ، كل هذا بالنسبة لمصر . وهناك ما هو فى دول عربية وإسلامية أخرى وما هو تابع لمنظمة المؤتمر الإسلامى ورابطة العالم الإسلامى .

٥- عدم التعصب لمذهب بعينه فى أى مجال من المجالات ، وهناك فرق بين اتباع أو تقليد مذهب وبين الاعتقاد بأن الحق مع هذا المذهب وحده ، وعلينا الحد من الطعن فى المذهبيات العقدية - إلا ما خالف القرآن والسنة صراحة (البابية - البهائية -

القاديانية) – والفقهية والفكرية حتى لا تبعث فى الأمة فتنة لا تبقى ولا تذر .

٦- تشكيل لجان علمية من أهل كل تخصص تبرز جوانب السلب فى هذا التخصص ، وتبين مواطن الإيجاب ، وتعلق على كلٍ بما تراءى لها من دليل ، ولعل فى كتاب المرحوم الشيخ النجار " قصص الأنبياء " خير شاهد على هذا وخير مثال لما أتطلع إليه .

٧- محاولة جمع التراث المسروق والمنهوب من الأمة الإسلامية وإعادة هذا التراث عن طريق المقاضاة أو الشراء أو التصوير الفيلمى حتى لا نبدد كنوزاً تركها لنا السابقون .

٨- الاهتمام بالتراث الموجود فى بلاد العالم الإسلامى ، وإنشاء مبان حديثة يحفظ من خلالها التراث ، ومعالجة الموجود منه بعد أن انتشر فيه السوس ، وجرى بين جنباته الدود ، وتآكلت بعض الأوراق ، وألقى ببعضها فى البدروم والمخازن ، وبيع بعضها بثمن بخس .

٩- اعتماد المخطوطات كعمل علمى فى مراحل الماجستير والدكتوراه ، كسبيل للمحافظة على التراث من ناحية وإخراجه بثوب

ناصع من ناحية ثانية ، وقد ذكرت ذلك لأن بعض الكليات تأخذ بـــه وبعضها لا تأخذ به وبعضها يحقق فى الخارج علـــى أســـاس مـــن البحث العلمى ، وبعضها يحقق على أساس من الهوى ، ونحن أولـــى الناس بمعالجة التراث .

١٠-التعامل مع التراث بأدب واحترام ، فلا يجوز السب أو الـــذم أو القدح أو الازدراء ، لقد سمعت من يقول عـــن مفـــاتيح الغيـــب للرازى بأنه (مفاتيح العيب) ومن يسم أو يصف بعـــض العلمـــاء بما يستقبح – والله حسبهم- وما هو خارج عن قيم الإسلام ومبادئه .

١١- إن كلامى هذا هو خُطى أخطوها بين يدى أســـاتذتى الذيـــن هم أساطين العلم وأرباب المعرفة ، والآباء أفـــرح النـــاس بخطـــى الأبناء ، يقيلون عثرتهم ويسترون سوأتهم ؛ فعذرا إن كنت قصـــرت والحمد لله إن كنت قد وفقت وأشكر لكم قراءة هذا العمـــل وطـــول صـــبركم وجـــزى الله الجميـــع خـــيرا ، إن أريـــد إلا الإصـــلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محتويات الكتاب